يوسف زيدان

غربة عرب

قصص قصيرات



غَربة عرب

يوسف زيدان

الطبعة الأولى ٢٠١٧

تصنيف الكتاب: أدب / قصص
© دار الشروق
٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com
رقم الإيداع ٢٠١٧/ ١٧١٣٧
ISBN 978-977-09-3434-0

الغلاف: هاني صالح

يوسف زيدان

غربة عرب

دار الشروق ©

◊ حتى نهاية العُمر ◊

مع طلوع الشمس الخجلى ووصول شعاعها الأول إلى أعلى البنايات الشاهقة، عاكسة الجوانب كالمرايا، خرجتُ من مأواي. أعني من مبنى الشقق الفندقية الذي أسكن فيه منذ عشرة أعوام، وأمازح زملائي في العمل بأنه أقدم مبنى في «دبي» والوحيد الذي لم يلحق به أي تغيير طيلة هذه السنوات.. وقفت أمام المبنى ومعي حقيبة سفري الصغيرة، منتظرًا التاكسي الذي سيأخذني إلى المطار، ومستبشرًا إلى درجة الابتهاج والتبسُّم بلا سبب، لما يملؤني من أمل عظيم المقدار.

وصل السائقُ الباسمُ في موعده، وأسرع بدسِّ حقيبتي في الجوف الخلفي لسيارته، وانطلق بي. عند التقاطع الذي بآخر الشارع الطويل، قلَّل من سرعة السيارة ولمحته يتلفَّت كالحائر بين الطرق الواسعة ومطالع الكباري، فعرفتُ أن المسار التبس عليه وأرشدته للسير قُدُمًا قائلًا كالمعتاد هنا سيدا، سيدا.. معذور، فكلُّ شيء هنا يتغير كل بضعة شهور، الطرقُ والمساراتُ والبنايات، على اعتبار أن التجديد هو الحياة! والذي لا يتجدد، يتبدد. هه.

لا ازدحام الآن في المدينة المعتادة على أزمات المرور، ولا هجير، فالبرودة اللطيفة الباقية من ليلة الأمس لم يذهب بها بعدُ وهجُ النهار. فجر يوم الجمعة، بحسب خبرتي الطويلة هنا، هو أنسب الأوقات للسفر ذهابًا أو عودة.

أردتُ محادثة السائق لتمرير الوقت، فوجدت طريقته في نطق المفردات العربية كارثية، ولا يجيد الإنجليزية، لكنه دائم الابتسام. لا بأس. أظنه يفكر الآن في مقدار «الإكرامية» التي سأعطيها له عند الوصول، أو لعله يبدأ هذه الأيام زمنًا شخصيًّا جديدًا، أو يعيش قصة حب مع فتاةٍ من قومه أعربتْ له عن إعجابها بوسامته المفقودة. لا يهم السبب. المهم أن أول وجه أراه في يومي المصيري هذا، مبتهجٌ، وهذه علامة جيدة تدل على أن التوفيق سيكون من نصيبي في رحلتي هذه، التي أختتم بها زمني الثاني وأستعد لبدء الزمن الجديد. السعيد.

❋❋❋

زمني الأول كان هادئًا في بدايته، وبسيطًا، إذ ليس فيه إلا المدرسة والواجبات المنزلية

المقيتة، والمرح أحيانًا مع الصبيان والألعاب الشوارعية ومباريات كرة القدم، والتجوال بغير هدف في طرقات حي «الكلاكلة اللفة» بالناحية الجنوبية من أطراف الخرطوم. هذا في النهار، أما في الليلات فليس هناك إلا السكون التام، والاهتياج المكبوت عند التفكير سرًّا في الفتيات وأسرار الفتنة السحرية الكامنة في نهودهن والأرداف.

ولما التحقتُ بالجامعة لدراسة التاريخ، اتسع المدى أمامي فأصبحت خبيرًا في معرفة الأحياء والأنحاء، وكان لي زملاء يسكنون في «أم درمان» العامرة الممتدة غرب النيل قبالة الخرطوم، حيث مقهاها الفسيح الرخيص الصاخب القريب من قبة المهدي. هناك أمضيتُ أطيب الأوقات وأنِست بالجلسات المفعمة بالطمأنينة والمرح الشبابي البريء وحكايات العشاق من أقراني السذج، وافتخاري بأن أبي يعاملني منذ صغري على أنني رجل فلا يتدخل إلا نادرًا في أموري.

أبي وأمي وأختي الكبيرة، زمانهم واحدٌ. وليس في مساره أي زوايا أو منعرجات أو تحولات حرجة. فأبي الذي لم يكمل تعليمه الجامعي لسبب لا أعرفه، زوَّجه أبوه بأمي فور حصوله على وظيفة متواضعة، وأسكنه في شِقِّ البيت الذي يسكن شِقَّه الآخر اليوم، عمي «بشير».. وأمي لم تخرج يومًا من حدود الخرطوم ونواحيها، والتصقت دومًا بالحي العتيق الذي نشأت فيه، وتزوجت وأنجبت بنتًا لم تفلح في الدراسة، فتزوجت من قبل أن تبلغ العشرين كأمها.. لا أظن أن أحدًا منهم كان مثلي، يحلم، ولا أشك في أن ثلاثتهم طيبون راضون عن حياتهم الرتيبة، لأنهم مؤمنون مستسلمون للقضاء وللقدر.

انتهى زمني الأول نهايةً عاصفة، وشهد معاناةً امتدت ثلاثة أعوام عجاف، فقيرة الذكريات.. بدأ الأمر في السنة النهائية من دراستي الجامعية، حيث تحمَّس أحبُّ الأساتذة إلى الطلاب «د.إبراهيم حسن» للإشراف على رحلة التخرج، المجانية، لمن أراد.. من جملة أربعمائة طالب ذهب أربعةَ عشر كنت منهم، ولم يكن معنا إلا طالبة واحدة، وهذا أمر متوقع في بلادنا. تحركنا فجرًا. سار بنا «الباص الجامعي» قرابة ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى منطقة تسمى «مَرَوى» وفيها قرى صغيرة يسمونها «البجراوية» تبعد عن الخرطوم بقرابة مائتي كيلومتر، شمالًا، وفيها رأيت العجب! أهرامات كثيرة كتلك المعروفة في مصر، تقوم عالية وسط السفوح والتلال.

كنا في مادة «التاريخ القديم» بالعام الجامعي الأول، قد درسنا من الكتب «الحضارة

الكوشية» ولكن على طريقة التحصيل الدراسي المؤقت الذي سرعان ما ينمحي. وكان قدَ مرَّ علينا مصطلح «الأهرامات الكوشية» لكننا لم نهتم كثيرًا بهذا الأمر، غير أنني حين رأيت هذه الأهرامات عيانًا تعجبتُ وسألتُ الدكتور «إبراهيم» فقال إن بالسودان عددًا من الأهرامات يزيد على مائتين، وهو ضعف عدد الأهرامات الموجودة في مصر.. عجيب! سألته عن سبب هذا التكسير في رءوس الأهرامات السودانية، فظهر عليه التأثر وهو يجيب بأن مغامرًا إيطاليًّا اسمه «جوزيبي فريلِّيني» كان يعمل طبيبًا مرافقًا للجيش العثماني الذي جاء ليبسط نفوذ آل عثمان على السودان، ثم انفرد لاحقًا عن الجيش وجاء إلى هذه المناطق المنسية لنهب آثارها. ولأنه من الصعب الولوج إلى داخل الأهرامات، ولأنه كان متعجلًا، فجَّر بالمفرقعات رءوس الأهرامات باعتبارها الجزء الأضعف، ومنها هبط مع عصابة اللصوص إلى داخل كل هرم، ونهبوا ما فيه من تماثيل ذهبية وآثار جنائزية. ولما اندحر هذا اللص وذهب من بلادنا بما نهبه، كان سكان هذه الصحراء القاحلة من البدو، الذين نسميهم في كلامنا العامي «العرب» قد تعلموا منه هذه الطريقة الخسيسة في النهب، فقاموا بتفجير المزيد من رءوس الأهرامات، وصار الحال كما ترى.

كأن الدكتور «إبراهيم» كان يريد أن يضيف شيئًا، غير أن دموع عينيه سالت وكاد يجهش، فاحترمتُ حزنه وابتعدتُ قليلًا تاركًا إياه في غمرة شجوه وشجونه، وحاولت الاحتماء من الشمس اللاهبة فآويت إلى الظل.. أثناء جلستي، ذاهلًا من فرط الدهشة، جاءني واحدٌ من «البدو» نحيلٌ شرسُ النظرات كذئاب الصحراء، وعرض عليَّ تمثالًا أثريًّا لامرأة تحتضن صدرها بذراعيها. طلب فيه ثلاثة آلاف جنيه سوداني، فلم يكن معي غير ألف واحدة، فقبل بها وأعطاني التمثال. وفي اليوم التالي ذهبتُ بالكنز الأثري لمتحف الآثار بالخرطوم، للتبرع به، وأدهشني سؤال الموظف الذي تسلمه عن الثمن الذي دفعته فيه، وحين أخبرته ضحك باستخفاف وسألني إن كنت أريد استرداد المبلغ، فرفضت. الألف جنيه سوداني كانت آنذاك تكفي بالكاد لشراء علبة سجائر مارلبورو.

بعد يومين التقيت بالدكتور «إبراهيم» وحكيت له ما جرى، آملًا أن يخفف ما فعلته من إحساسه بالحسرة، فوجدت العكس! فقد انزعج مما فعلتُ وأخبرني بأن موظفي المتحف يتاجرون في الآثار، وسوف يبيع الموظف هذا التمثال لمهربي الآثار بمليون جنيه

سوداني، فيبيعونه في أوروبا بمليون دولار.

ـ كيف يا دكتور؟

ـ عليك الله، ما تقلِّب عليَّ المواجع..

انصرفتُ من أمام الأستاذ حسيرًا، واتسعت حسرتي حين فشلت في استعادة التمثال من الموظف. قال إنه أُرسل للفحص، ولن تظهر النتيجة قبل سنوات! وامتلأتُ بمزيدٍ من الحسرات في السنوات الثلاث التاليات على تخرجي، لأنني لم أجد خلالها وظيفة. وهكذا أيقنت بأنه لا عيش لي في بلد منهوب، فحلمت بالسفر وراسلت الجهات وأرسلت المئات من طلبات العمل، حتى سنحت لي فرصة العمل بالمركز العربي للاستشارات الإدارية والتنمية البشرية، الذي مقره في «دبي».

***

لم أشعر بالمسافة التي قطعناها إلى المطار. أنزلني السائق البسَّامُ أمام بوابة المغادرين وأسرع بإحضار حقيبتي، فنفحته وولجت من البوابة الزجاجية إلى الدوامة البشرية الهادرة، بلا ضجيج، وفي سمائها تحلق الطائرات التي تحط وتُقلع بالعشرات. يقولون إن مطار «دبي» يستقبل ويودع في العام الواحد، خمسين مليون مسافر! لك الله يا مطار الخرطوم الفقير.. الفتاة «المواطنة» فحصتْ تصريح إقامتي وختمتْ جواز السفر في أقل من دقيقة، كالمعتاد، فأسرعتُ إلى الطابق الأرضي حيث المحالّ المحيرة بكثرة المعروضات ووفرة البدائل. أعجبتني ساعةَ يدٍ رقيقة فاشتريتها لها، لتكون مع زجاجة العطر الأنيقة وعلبة الحلويات، هي هداياي التي سأقدِّمها غدًا إلى «وعد» عساها تبتهج بهداياي فتهتدي، وتنظر بعين الرضا إلى ما سوف أطلبه منها.

قلتُ في سري، مطمئنًّا، إنني سأصل مطار عمان وقت الضحى فأترك حقيبتي في الفندق وأنطلق لصلاة الجمعة الجامعة بجامع «الحسين» بوسط المدينة. إن أدركت موعد الصلاة. ثم أتحرك حُرًّا في المدينة لأستشعر الأجواء الأردنية وأقترب منها، فهذا مهمٌّ للتهيؤ لموعد الغد مع «وعد» التي لم أحصل منها بعد، على أي وعود.. وسوف أستنفر كل قوايَ، وأتحفَّز تمامًا مستعملًا القواعد التي أحفظها لألقيها على مسامع المتدربين في مادة «التحفيز الذاتي وإبراز المهارات».

***

زماني الثاني الذي أختتمه اليوم، بدأ برحلة طيران كهذه. لكنها كانت من الخرطوم إلى القاهرة، حيث انتظرت يومين حتى اجتمع الموظفون الستة الجدد وسافرنا معًا إلى دبي.. كانوا من مختلف الدول التي تتحدث العربية الفصحى رسميًّا، وفعليًّا تلهج في الحياة اليومية بألسنة متعددة: اثنان مصريان وشابٌّ من تونس وآخر من الجزائر وفتاةٌ فاتنةٌ ساحرةُ العينين من المغرب، وأنا.. وفي «دبي» انضم لنا اثنان من سوريا، وفتاةٌ جريئة من لبنان.

وقتها عملت بنصيحة أمي، فأمضيتُ اليومين القاهريين في زيارة أضرحة المشايخ وآل البيت، وفكرت في زيارة الأهرامات الثلاثة الكبيرة التي بطرف المدينة البعيد، لكنني صرفت نظري عن ذلك من دون سبب. وكان أجمل ما رأيته في القاهرة، الرجل الطيب الذي كان يجلس خلف طاولة الاستقبال بالفندق المتواضع الذي أقمت فيه.. أخبرني في اليوم الأول بأنه يحب السودان، لأن صديقًا له كان يعمل معه طيلة عشرين عامًا، وتوفي العام الماضي، كان سودانيًّا. وكان رحمه الله حسبما وصفه «عم عبده» بلهجته المصرية: من خيرة الناس، أدبًا ورجولة وأخلاقًا، ربنا يرحمه بحق جاه النبي ويرحمنا احنا كمان فوق البيعة.. أثار كلامه استغرابي.

في يومي القاهري الثاني، جلست بجوار «عم عبده» لأستريح من تجوال النهار والظهيرة، وأستعد للجولة المسائية. وأخبرته باستغرابي من أن الناس هنا يبتسمون في وجهي حين يعرفون أنني من السودان، ولا يحتقرونني حسبما كنت أظن..

ـ وأنت يا بني كنت بتظن إيه بالضبط؟

ـ يعني. أنا متأسف، بس عندنا في السودان ناس كتير بتقول إن المصريين بيحتقروا السودانيين.

ـ بلاش كلام فاضي.. يا بني، مصر دي طول عمرها تلات حتت: الدلتا يعني الفلاحين، والوادي يعني الصعايدة، والسودان، بس منه لله المفتري..

ـ المفتري! قصدك إيه يا عم عبده؟

ـ قصدي سبع البرمبة اللي اتفق مع الإنجليز ولاد الجزمة، هو يفصل السودان عن مصر، وهم يراضوه.

ـ مُش فاهم.

ـ أحسن برضه، خليك مُش فاهم أحسن ما تتفلق من الغيظ.

كنتُ أدرك طبعًا ما يقصده، فقد درست في مادة التاريخ المعاصر، المهازل التي أدت إلى انفصال مصر والسودان. لكنني أشفقتُ من الكلام في السياسة، أو في الحقيقة خفتُ، فأخذت حديثي معه إلى وِجهة أخرى.. آمنة:

ـ إنت عارف يا عم عبده، إن فيه في السودان أهرامات؟

ـ لأ معرفش، إنما ممكن طبعًا. قلت لك طول عمرها بلد واحدة، بس الناس دلوقت بقوا حمير ومُش فاهمين أي حاجة. يلّا، أمر الله.

***

تلاشت كالدخان الذكريات حين هبطت الطائرة بسلام في مطار «عمان» الدولي، الصغير، فأسرعت إلى الفندق ومنه إلى جامع الحسين لكنني لم أدرك الصلاة. لا بأس، فالله تعالى غنيٌّ عن العالمين، وأنا محتاج لمعرفة المدينة. تجولت في الشوارع المحيطة بالجامع، وجلست بالمقاهي وتطلَّعت إلى الوجوه التي تخفي الطيبة خلف الملامح الصارمة. الأردنيون معظمهم بدو يفتخرون بكونهم من العشائر التي تعتز بذاتها بإفراط، ولكن لا بأس، فربما كان ذلك هو السبب في اعتزازِ «وعد» بذاتها وتعاملها مع الآخرين بعزة تمازجها رقة، وسمو ليس فيه خيلاء.. هي حقًّا زوجة مناسبة.

في ختام اليوم عدتُ إلى الفندق مبكرًا، وعندي شعور خفي بأن زمني الثاني الذي امتد خلال السنوات العشر الماضية، انتهى الآن على خير.. فقد ذهبتُ إلى «دبي» دون أدنى فكرة عما سأكون عليه، وكنت بالأساس أهرب من قدر الله إلى قدر الله، وبقيت لمدة عامين موظفًا إداريًّا، ثم صرت أحيانًا محاضرًا إذا دعت الحاجة وموظفًا إداريًّا، وفي عامي الخامس صرتُ الأستاذ المدرِّس، والعامين الماضيين أصبحتُ خبير التنمية البشرية والمحاضر البارع في مادة التحفيز.

تحفزت للزواج قبل شهور، حين رأيتُ عمري أشرفتْ سنواته على الخامسة والثلاثين، والأهل يلومونني على بقائي أعزب دون مبررٍ! مع وجود رصيد بنكي. حاولت خطبة «ميعاد» ابنة الأستاذ «عمر بشري» وهو سوداني يعمل بالخليج منذ عشرين سنة ولا يستطيع العودة إلى موطنه لأسباب سياسية، وهو منذ ثلاثة أعوام يعمل موظفًا ببلدية دبي. وحاله فيما يبدو ميسور، وابنته «ميعاد» لطيفة ورشيقة القوام. طلبت مقابلتها فوافقت، وعرضت عليها الزواج فرفضت، مع أنني أخبرتها بأنني

صرت أملك شقة فسيحة بحيٍّ «السجانة» بالخرطوم، وهي لن تجد عائقًا يمنع عودتها إلى السودان.. ضحكتْ وهي تقول إنها لا تريد أصلًا العودة للسودان، ولا تحتمل اسم الحي الذي اشتريت فيه تلك الشقة، ولن تقبل بالزواج من رجل سوداني. أبدًا! ثم لطَّفتْ كلامها بقولها إنني وسيمٌ وميسورُ الحال وناجحٌ، ومعظم الفتيات يرحبن بالزواج مني ويسعدن بالعيش معي. كلام.

أيامها عصف بي الإحباط حينًا، ولم تنجح الطنطنة التي ألقيها على المتدربين، في إخراجي مما كنت فيه. حتى انعقدَت الشهر الماضي بمقر المركز، دورة التدريب التي حضرها عشرة أردنيين من بينهم ثلاث إناث، من بينهن «وعد» الموظفة بإدارة الجامعة الأردنية. يا الله على وعد، ورقة وعد، وجمال وعد، وأدب وعد. هتف بباطني صوت كأنه أتى من فوق السماوات، قائلًا: هذه هي زوجتك وشريكة الدرب في زمنك الثالث الذي آن الآن أوانه، وسوف يمتد إلى نهاية العمر.. وعد.

في تمام التاسعة صباحًا وقبل موعدنا بساعة، كنت جالسًا في مدخل «الكافيه» الذي اتفقت تليفونيًّا مع «وعد» على اللقاء فيه. وفي موعدها جاءت ترفل بساقيها الرشيقتين في فستانها الحريري الرقيق. يارب، إن كانت هذه واحدة من بنات الدنيا، فكيف ستكون إذن الحور العين؟ هل هناك أجمل من هذا؟! أقبلتْ كالفرحة، وقالت وهي تجلس:

ـ أهلًا وسهلًا، إيش هادي الزيارة المفاجئة؟

ـ في الحقيقة، أنا جاي عمان مخصوص علشانك.

ـ علشاني أنا.. كلامك عجيب، خير؟!

ـ يعني، أنا ما بعرف ألفّ وأدور. وبصراحة، نفسي من زمان أتجوز واحدة أردنية. لأ، قصدي إني بتشرف بأني أطلب يدك للزواج.

ـ يا أستاذ، أنا مانِّي أردنية.. فلسطينية، وبعدين إنت ما بتعرفني!

ـ عارف إنك ساكنة في عمان، وعندك سبعة وعشرين سنة يعني مناسبة لي، ومؤدبة وجميلة..

ـ أنا مزوَّجة. وكمان عندي طفل، لكن فيه مشاكل مع زوجي من شهور، ومساعي للصلح. أنا آسفة. وعمومًا إنت كتير من البنات يتمنوا شخص متلك.

***

رحلت الفرحةُ، مسرعةً، للهروب من الحرج. وبقيت جالسًا كأهرامات السودان المنسوفة رءوسها، وليس في فؤادي المفتَّت إلا الأسئلة:

أين أذهب.. وكيف سيأتي زمني الثالث الممتد حتى نهاية العمر.. ومتى؟

⋄ أمنيات جازية المستحيلة ⋄

الأمنياتُ تريح إلى حينٍ وتسكب المواساة والسلوان على القلب المحروم من الفرح، ولهذا فهي حيلةُ بقاءٍ، وحلٌّ متاح لمن دارت به دوامة العدمية.. وحتى لو كانت الأمنية مستحيلة التحقق، فإنها تظل نافذة واسعة تسمح بالهروب من الواقع الخانق، ولو بشكل خيالي أو افتراضي. ومن هنا، كانت أمنياتي حيلة احتملت بها حياتي، وثأرت من واقعي، وامتلأت بنشوة غامضة لن يعرفها غيري.

في العاشرة من عمري كانت أمنيتي المستترة، المستحيلة، المريحة؛ هي أن أصحو يومًا من نومي الطفولي، فلا أجد شيئًا مما حولي. يختفي بيتنا وكل من فيه، فجأة، فيذهب بسكانه والجيران إلى الجنة أو الجحيم، بمن فيهم أخي «خطورة» وأمي معدومة الحيلة والمقدرة.

❋ ❋ ❋

أعطوني عقب مولدي اسمًا لا معنى له إلا في حدود حياتهم، فلا يفهمه غيرهم ولا اعتاد عليه أحدٌ غيرنا. وما كنت أدري أيامها، أعني في طفولتي وصباي، أنه غريب في غير موطني ومثير للدهشة! فقد أسموني بالاسم القديم، بل العتيق، المنقول من السيرة الهلالية: جازية.

البيت الذي ولدتُ فيه وأردتُ أن يختفي من العالم، يقع في طرف حي «البركة» الذي بطرف بلدة «بنغازي» التي تقع عند التقاء البحر بالصحراء. قالوا لي في الصغر فصدقتهم، إن اسمي معناه المكافأة والجائزة. ثم عرفتُ لاحقًا أنه لفظة من تلك المفردات العربية التي تعني الشيء ونقيضه، وهي المسماة عند أهل اللغة القدماء: ألفاظ الأضداد.. فهو يعني، ويا للعجب: الثواب، ويعني أيضًا: العقاب.

وقالوا لي إن اسم الحيِّ الذي نشأتُ فيه مشتق من البَركة، أو هو اسم لمكان كان فيما سبق بِرْكة مياه. ثم عرفت بعد حينٍ من الدهر أنه مأخوذ من اسم ثكنة عسكرية عتيقة بناها المحتل العثماني قبل مجيء المحتل الإيطالي، وهذه الثكنة هي ذلك المبنى الكبير الباقي حتى اليوم، مهملًا ومهجورًا، ويعرفه الناس باسم «القشلة».. وقالوا لي إن اسم هذه البلدة مأخوذ من كوننا أبناء شيخٍ صالحٍ من الأولياء اسمه «غازي» جاء مع

الغزوة المباركة التي فتح فيها المسلمون بلادنا، بقيادة أمير الحرب «عمرو بن العاص» ونشروا بأرضنا رايات الهدى والدين القويم والتوحيد. ثم اكتشفتُ أن جيش المسلمين الغازي، الفاتح، فعل في أرضنا الويلات وفرض جزيةً كبيرة على أهلها لا يستطيعون دفعها، وألزمهم ببيع أولادهم لسداد الجزية. وأن البلدة هذه كانت تعرف مع أربع بلدات أخرى باسم «المدن الخمس الغربية» وكانت تنطق باليونانية القديمة «بنتا بوليس» ثم عُرفت البلدة باسم «برنيكي» التي نطقها العرب «برنيقة». وفي زمن الاحتلال العثماني للبلاد حاول فرسان القديس يوحنا احتلال البلاد، فأعد السلطان العثماني جيشًا من ألف مقاتل للدفاع عن البلدة، فعرفت البلدة بهذا الاسم التركي الذي يعني حرفيًّا: بين (ألف) غازٍ (جندي).. ثم التصقت الكلمتان وظنهما كثيرون: بني الغازي. أما اسم السجن الكبير، أقصد الدولة التي يحتلها الأخُ الفخُّ «الجدَّافي» من قبل مولدي بثلاثة أعوام، ويسميها «الجماهيرية» فهو مشتق من اسم قبيلة أمازيغية قديمة كانت تعرف منذ زمن الفراعنة باسم «الليبو».

بيتنا لا يختلف كثيرًا عن بيوت الجيران، ونحن نسميه مثلما يسمي الجيران بيوتهم «الحوش». هو فناءٌ داخليٌّ خلف بابٍ خشبيٍّ كبير يغلق في المساء بمزلاج حديدي، وطابقان خجولان فقيران من الزخرفة وحليات المباني، ملحقٌ بهما غرفة الضيوف التي نسميها «المربوعة».. لم أكن أعرف أيام كنت في التاسعة من عمري، تعاسة كوني أنثى، فاعتقدتُ أن الحياة جميلة وليس فيها إلا اللعب وبعض المضايقات المحتملة، كالصحو مبكرًا للذهاب إلى المدرسة. لا أذكر من ذاك الزمان إلا لعبة «النُّقيلة» مع البنات، واللعبات الأخرى المختلطة بين الصبايا والصبيان، والجري للاختباء من أخي مختار الذي نناديه «خطورة» وابن عمتي هاني الذي نناديه «هويني» وجارنا الصغير فتحي «فتيحة» الذي رماني ونحن نلهو بحصاةٍ أوجعتني، فقذفته بحجر شجَّ رأسه الصغير فأدمى منه نقطتين. كان من الممكن أن يمر الحادث مثلما تمر مثيلاته، لولا أن الولد اندفع إلى حوشهم فزعًا، فصرختْ أمه وكان أبوه على مقربة، فقامت قيامتي ولم تجلس من بعدها.

أبي ضربني ضربًا موجعًا، جدًّا، وكانت أمي تنظر إليه كالمتفرِّجة، ثم أمرها بحجبي.. كنت آنذاك في العاشرة من عمري، وكان «فتيحة» نفسه قد دفع قبلها بأسبوع ابنة عمي خديجة «خُدُوجة» بقوة، فوقعت على حَجر أدمى ركبتها بدمٍ كثير، فأبكاها، فلم يعاقبه

أحد إلا بكلمة: ليه كده يا وليدي؟!

أمي أفهمتني أن الولد ليس كالبنت، وليس الذكر كالأنثى! فلم أقتنع بكلامها، لكنني التزمتُ الصمت التام. وبعد أيام كان أبي عائدًا من عمله، وكنت جالسة بسكون على عتبة «الحوش» أغالب الفراغ بالفُرجة على الأولاد اللاعبين أمامي بالكرة، ومستمتعين بكونهم ذكورًا بل سعداء بذلك إلى أقصى حدٍّ. لم أكن ألعب معهم، ولا كنت أنوي ذلك، لكن أبي اغتاظ من جلوسي العلني هذا فلطمني بطرف الجريدة التي يمسكها وكانت ملفوفة كأنها أنبوب، وقال بغضب: قلت لك جعمزي جنب أمك.

صرختُ فضحك الأولاد فكرهتُ أبي الذي أهانني، ولما استفقت من وقع الإهانة بعد فترة، تفتق ذهني عن فكرةٍ تخرج بي من أسر الجدران وتتيح مشاهدة السماء. تحايلتُ سرًّا حتى نصبت فوق سطح بيتنا ما يشبه الخيمة ووضعت فيها أسرتي التي اخترتها بإرادتي، أقصد عرائسي، وانزويت هناك بعيدًا عن الأعين. وكدت أرتاح لحديثي الحر مع العرائس، لكن أمي منعتني من هذا السلوان وحذرتني من العقاب الشديد الذي سألقاه من أبي إذا عرف بفعلتي هذه.. لماذا؟ لأن السطح مكشوف، ولأن وجودي عورة يجب أن تتوارى. لماذا؟ لأن حبَّتيْ صدريَّ الذي نَهَدَ أخذتا تتحجران فتؤلمانني، وهذا يعني استعلان أنوثتي.

الأنوثة في بلادنا مؤلمةٌ قلبًا وقالبًا.

***

في العشرين من عمري كانت أمنيتي المستترة، المستحيلة، المريحة. هي أن أصحو يومًا من نومي، فلا أجد «بنغازي» وكل ما فيها، ولا يهمني أين تذهب. للفردوس أو السعير أو اللا شيء. المهم أن أرتاح منها ومنهم، ومما ألاقيه في صحوي وفي نومي الذي انعدمت أحلامه.

كنتُ في السنة الثالثة من سنواتي الجامعية، بقسم الفلسفة التي تغيَّر اسمها بأمر من الأخ القائد فصار «التفسير». وفي يوم بائسٍ ابتسمتْ زميلتي «فتحية» ذكورية الملامح، وهي تقول لي إنني سأقابل غدًا مشرفَة اللجان الشعبية لأنني مرشحة، دون أن أدري! لأكون ضمن المحظوظات اللواتي يتولين الحراسة الشخصية للقائد.. من صدمة المفاجأة ضحكتُ ضحكةً هستيريةً مكتومة، وقلتُ لها بغير تفكيرٍ إن عندي مانعًا يحول دون ذلك. نظرتْ لي نظرةً مرعبة وقالت بصرامة إنني جاحدة للنعمة ومحتاجة

للتأديب. نعم، قالت ذلك. ثم حذرتني من التخلف عن موعد الغد، في تمام العاشرة صباحًا.

أخبرتُ أمي فور عودتي للبيت عصرًا، فأخبرتْ أبي فور استدعائها له من المقهى القريب.. أبي أزاح عنه غلالة الفخر وارتجف، وطلب مني أن أعيد عليه ما طُلب مني، وأنقل إليه المحادثة التي جرت. حرفًا بحرف. فعلتُ فسال من عين أمي الدمع الصموت، وأخذ أبي الذهول. ليته ظل فيه إلى الأبد. بعد هنيهةٍ استفاق فقام من فوره وخرج من البيت دون أن ينطق بأي شيء، هو فقط رمقني بنظرة من ذلك النوع الذي لا ينسى ومن شأنه تأكيد النفور والكراهية، نظرة يختلط فيها الغيظُ بانعدام الحيلة والحنقُ بقلة الاستطاعة والعارُ بعدم الاقتدار.

ذهب.. ومن بعده قامت أمي كأنها تسير نحو حفرة موتها، مستسلمةً، فلم أجد معي غيري وغير مواجهة الحقيقة المفعمة بالمرارة: هذا المجتمع حقير وكله كذب.. مضت عليَّ ساعتان ساكنتان قبل أن تلمع برأسي الفكرة، فاتصلت تلفونيًّا بابن عمتي «هويني» الذي يدرس في السنة الثانية بكلية الطب، وسألته عن اسم دواء معروف لعلاج التبول اللا إرادي، فسألني عن سبب سؤالي، فقلت له إن إحدى زميلاتي لديها خادمة مسكينة مصابة بهذا الداء، وتتحرَّج من الذهاب إلى طبيب. طلب مني أن أمهله دقائق، وبعد نصف ساعة اتصل بي، وقال إن الدواء اسمه «توفرانيل» ويباع في الصيدليات باسم: أميبرامين.

توقعت أو بالأحرى تمنيت، أن يمنعني أبي من الذهاب في اليوم التالي إلى الجامعة حيث الموعد المضروب، لكنه لم يفعل. وفي طريقي إلى خارج البيت، إلى خارج الأمان الكاذب والخداع، نظرتْ أمي نحوي تلك النظرة التي رأيتها يومًا في برنامج تلفزيوني عن الحياة البرية والافتراس، كانت تنظرها ظبيةٌ لصغيرٍ لها تتناهشه الضباع وتلتهمه.

لا أحد في هذا الكون، غيري، ولن يجيرني أحد. شعرت بذلك في طريقي إلى الجامعة، وقبل دخولها عرجت على صيدليةٍ بعيدةٍ لن يعرفني صاحبها واشتريت الدواء ودسسته في حقيبة يدي، وكنت قبل خروجي قد دسستُ بداخلي قطعًا من القماش المهترئ بعدما بللتها ببعض البول، ثم أحكمت فوق ذلك القماط.

في تمام العاشرة ذهبت إلى «فتحية» التي أخذتني إلى «نجية» التي زفَّت لي البشرى، المرعبة.. قالت بعدما انفردنا إنه وقع عليّ الاختيار السعيد، تقديرًا لجمال وجهي

ورشاقة بنياني ونهود صدري المثير. كان من الواضح أنها سحاقية. قلتُ لها إن عندي مانعًا قاهرا يحول دون تلبية نداء الواجب، ويعوِّقني عن القرب من القائد أو غيره من الرجال، فتعجبتْ من كلامي واستفسرتْ وهي تظهر الصرامة، فأخبرتها بأنني مصابة منذ طفولتي بسلس البول.. نظرت نحوي متشككة، فأخرجت الدواء الذي كنت قد أنقصت منه، وبينما تنظر إليه باستغراب قمت بحركة الختام المدهشة، وأخرجت الخرق التي دسستها. فلما رأت المنظر وشمت الرائحة التي فاحت، صاحت بعصبية:

ـ شنو ها القرف وها العفن، اطلعي برة، امشي.. امشي.

انتهيتُ من ورطتي بهذا الحل العبقري الذي لم أخبر به أحدًا، حتى أمي، وحين سألتني يومها عما جرى معي قلت لها إنني رسبت في اختبار القدرات، ولم أكن لائقة للقرب من الأخ القائد الذي يملك الأرض وما في جوفها وكل من يعيش فوقها. صدقتني وحمدت الله، وراحت تعد الأيام الباقية على تخرجي وهي قلقة، فكانت في العام الأخير تسألني دومًا إن كان قد جرى معي أي جديد، فأنفي، فتحمد الله على الستر.

ما كنت أتوقع أنني سألجأ للحيلة ذاتها بعد عام. فعندما لاحت بوادر تخرجي كثر الحديث عن وجوب زواجي، فقمعتُ كل المؤامرات بأن تهامستُ مع الجارات مفصحةً لهنَّ عن السر الدفين، فشاع عني أنني مريضة وسوف يعافني الرجال فانصرفت الأنظار عني. أمي بلغها في خاتمة المطاف ما أشعته عن نفسي، فسألتني، فأكدتُ، فتحسرتْ، فاسترحتُ، فهدأتْ أيامي.

عندما بلغت الثلاثين وأنا في أسر العنوسة المختارة، كنت قد اعتدتُ على استقبال نظرات الازدراء من أبي والجيران. وكان الوحيد الذي يحنو عليَّ هو خالي «رحومة» المقيم بالإسكندرية، وهو الذي أهداني جهاز الكمبيوتر الذي كنت أقضي أمامه معظم أوقاتي، وكان وسيلة إشباع شغفي بتعلم اللغات.. تعلمت الإيطالية والفرنسية، وأتقنت الإنجليزية، من دون أن أنتبه وقتها إلى أن تلك اللغات، سوف تغير مسار حياتي.

***

عندما أنجبت زوجة خالي «رحومة» للمرة الخامسة على التوالي، وكانت حُبلى بتوأم، اقترحتْ عليه أن أُقيم معهم فترةً لأُعين امرأته على ظروفها الصعبة. شكرني وقال إن

لديه بالبيت خادمتين، وإن زوجته معتادة على هذه المعاناة، فبكيتُ ورجوته أن يوافق حتى أتحرَّر من سجني.. فاستجاب لي.

في الإسكندرية رأيتُ أن الحياة تستحق أن تُعاش، وصرتُ حرة. أخرج في بعض الأحيان وحدي، وأسعد بالمعاكسات التي تفيض ظرفًا فأظهر عدم الاكتراث، وأصحو من نومي فرحة بمجيء يوم جديد في بيتٍ واسع لا يهدِّده شيء، وأزور خالي في شركة الخدمات البترولية، فأقابل هناك «ماريو»، وبعدَ عبور صعاب كثيرة نتزوج، فنعيش بضعة شهور في حضن الإسكندرية ثم ننتقل إلى الدوحة للعمل لمدة عامين، بعدهما نستقر هنا في روما.

وبعد مرور السنوات، نسيتُ أمنياتي المستحيلة التي استعنتُ بها على عبور المرحلة الصحراوية من عمري.. ثم تذكَّرتها وكفرتُ بها مؤخرًا، حين ارتجتْ مصرُ وتونسُ وطال ليبيا لهبُ الثورات. وجدتني كأنني قد صرتُ غيري فقد صرتُ أتلهف لملاحقة الأخبار المتسارعة والانهيارات الهائلة للأكاذيب التي ترسخت حول القواد القوادين، والعذاب الذي يعاني منه أهلي هناك، وأنا هانئة هنا.. وعدتُ الآن إلى الأمنيات المستترة، المستحيلة، المريحة. فصرت أرجو أن ينصلح الحال ويُرحم الناس من أهوال الفظائع المريعة التي تجري في ليبيا، وفي بنغازي الحبيبة، وفي حي «البركة» الذي صار اختبارًا مريعًا للرحمة الإلهية.

◊ بستانيُّ الشهباء ◊

بعدما سكنت الليلة الصيفية، واستدام صمتها الثقيل التام كالظلام المحيط بالغرفة والبيت والأنحاء المحيطة والسماء البعيدة، سمعت صوت أبي يسألني هامسًا: إنت نمتِ؟ فأجبته بأن نزلت من فوق سريري إلى مرقده، وبقيت جالسة بجوار قدميه لحظاتٍ ثم رحت برفق أضغط عليهما بأطراف أصابعي، عساه يستريح حينًا من آلام المفاصل وأوجاع الروماتيزم فيستسلم للنوم.. بعد سويعة، شعرت به لا يزال مسهّدًا فرجوته أن يصعد إلى السرير ليستريح أكثر، لعله ينام، فرفض دون أن يتفوه بكلمة. مسكين. أردت التسرية عنه فهمستُ سائلةً إياه عما يفكر فيه، فاعتدل ببطء من نومته وأسند ظهره للجدار بجانبي وقال وهو يضم بذراعيه ركبتيه إلى صدره: في المرحومة أمك.

أمي استحقت الرحمة السماوية، فنالتها، كانت تحنو على الفقراء وتشارك عمي «مصطفى» في أعمال الخير فأخذها الله إليه عند مطلع العام العاشر بعد الألفين، وماتت في سلام. فلم تشهد زمن الفضيحة وانهيار الرواسخ والمعاني التي توهَّمنا أنها غير قابلة للانهيار. ما كان الخيال يجمح بأحد إلى هذه الدرجة المريعة، فيتصور أن الجنون سوف يعم ويعربد على هذا النحو..

أمي كانت الفتاة المدللة لأسرة «الصباغ» الشهيرة بثرائها ورواج أعمالها في ميدان الأقمشة والمفروشات والنسيج، تزوجها أبي وهي في التاسعة عشرة من عمرها، وكان هو في الواحدة والعشرين، وقيل وقتها إن هذا الزواج المثالي هو علامة التناغم بين أسرتها وأسرة أبي «العقاد» التي كانت تعمل بالمجال ذاته ولأفرادها محلات حلبية كثيرة، وشامية، ومعامل نسيج كثيرة متناثرة على جانبي الطريق المؤدي من هنا إلى الشام. هذه المصانع نسميها نحن الحلبيين: معامل، ونسمي دمشق: الشام.

أمي لم تدخن قط وكانت تعاف الأكل خارج البيت وتحرص على الصحي من العادات والشهي من المأكولات، ويوم اكتشفت في خزانة ملابس أخي الكبير «نجاد» علبة سجائر كاد يغمى عليها من فرط الفزع عليه، وبكت بعدها كثيرًا لأنه لم يستطع أن يعد بالإقلاع، ويقسم لها بذلك.. ومع ذلك، ماتت ضحية السرطان! قيل لنا أيامها إنه نشب في دماغها، فلم نُمهل إلا يومين. ماتت وهي في ريعان جمالها مثلما تموت سنديانة

ذهبية، وهي واقفة.

أصابني موتها بصدمة ما توقعتُ أنني سأفيق منها أبدًا، خصوصًا أن أبي وأخويّ «نجاد وسيف» كانوا منهارين تمامًا، مما دعا عمي مصطفى لأخذي بعد انتهاء العزاء إلى بيته، لأكون قرب ابنته «تالة» صديقتي الصدوق، ورفيقة عمري الذي شارف على حدود العشرين. كنت أيامها مغرورة بالرقي والثراء والعزة، فاعتقدت أن الموت شر لا يحتمل. ثم عرفت لاحقًا أن الحياة لا معنى لها، والموت ليس سوى ارتياح من الأوهام. ولم أعد اليوم مؤمنةً مثلما كنت.

***

في منتصف العام العاشر بعد الألفين، المليء بالفواجع العجيبات والمبهجات القليلات، قرر أخواي افتتاح محل كبير لبيع الأقمشة الفخمة والمفروشات في سوق هائل الحجم اسمه «الآفنيوز» بالكويت. زرته مرة واحدة في أواخر ذلك العام، فرأيت أن دنياي تختلف عن بقية العالم، وجاءني زمرة من الخاطبين الذين لم ألتفت لأحدهم. لأنني كنت قد تعلقت بمصطفى الذي دعاني وقتها أن أناديه «تيفا» فنطقته «طيفه» فضحك وتمسك أكثر باسم التدليل هذا.. هو أظرف إنسان في الكون، وهو الحبيب الوحيد الذي لم يسبقه إلى قلبي سابقٌ، ولن يتلوه لاحق.

رأيته في أواخر صيف ذلك العام البعيد، أيام كنت أستعد للعودة إلى الجامعة بعد انقضاء عطلة العام الدراسي. جاء من مصر كي يعقد اتفاقَ عملٍ مع أبي وعمي مصطفى، وكانا قد مدحاه أمامي من قبل أن أراه. وفي ظهيرة رائقة، يومَ الأربعاء الثامن من أيلول الذي يسميه المصريون «سبتمبر» وكان حبيبي يسميه شهر تسعة! دعانا عمي مصطفى للغداء في مطعم «مسايا» احتفاءً بالضيف، فكنا قرابة عشرة أشخاص: أبي وعمي وتالة وأخوها وزوجته وزوجة أخي «سيف» وطفلها الرضيع، والضيف الذي لا يكف عن المزاح وإلقاء النكات على طريقة المصريين المعروفة. وكان معنا رجلان آخران، أحدهما مصريٌّ والآخر حمصيٌّ رثُّ الهيئة.. عقب الغداء دعانا أبي إلى الذهاب عند محل الحلويات المشهور «سللورة» لنأكل الهيطلية، فقال الضيف بلهجته المصرية: هيطلية إيه بس ده أنا اتهطلت خلاص من كُتر الأكل.

أصرَّ أبي فذهبنا إلى هناك وقد انخفض عددنا إلى النصف، وفي الطريق همست «تالة» في أذني بأن الضيف يرمقني خلسة بنظرة تواقٍ، فاستسخفت كلامها ولم أهتم به. في

المحل، طلب أبي لنا الهيطلية فقال الضيف وهو يضحك: لا يا عم أنا ممكن آخد جيلاتي! فأدرك موصل الطلبات أنه يريد البوظة، وجاء بها إليه. دون مقدمات، وكأنه كان يريد أن يبدد الصمت، سأل الضيف أبي إن كنّا ابنتيه فأجابه بأنني ابنته، وتلك زوجة ابنه وهذه ابنة أخيه، فالتفت الضيف إليها وسألها عن معنى اسمها فقالت:

ـ يعني النخلة لزغيرة.

ـ يا سلام، حاجة عجيبة فعلًا. وزغيرة دي طالعة من بقك ما شاء الله، زي العسل. تالة، والله اسم حلو، وبنت عمك اسمها تالة هي كمان؟

ـ لأ، بانة.

ـ يا نهار أبيض عليَّ وعلى سنيني، بانة! الكلمة دي شكلها كده جامدة طحن، وأكيد ليها معنى.

ـ البان شجر، الواحدة بانة.

ـ أيوه، أعرفه. ده الشجر اللي بيطرح لبان!

ضحكوا وابتسمتُ، وأفهمه أبي بلطف أنه مخطئ وشرح له أن اللبان هو صمغ شجرة الكندر، أما البان فهو شجر رشيق سامق تُطبخ أوراقه لفائدتها الغذائية، وكان الشعراء يتغنون به ويسمونه شجرة الحب.. فعقب على شرح أبي بقوله:

ـ يا سلام، كلام جامد فعلًا. بس ليه بتعقدوا الدنيا كده في الأسامي، يعني مالها فيفي ونوسة وسمسمة.

ـ هادي أسماء تدليل يا أستاذ مصطفى!

ـ وماله، التدليل حلو برضه. وعلشان كده قالوا: كله يدلع نفسه، بالعقل وبالأصول. هاقولكم نكتة على حكاية الدلع دي، مرة واحد كان بيدلع مراته كل يوم باسم شكل، وبعدين خلَّص كل الأسامي، مراته قالت له أنا اسمي إيه النهارده؟ قال لها: مجهولة.

أوصله أبي إلى فندقه «زمريا» وفي طريق عودتنا إلى بيتنا بالشهباء الجديدة، امتدح أبي لطف الضيف، فقلت إنني أراه سخيفًا وسطحيًّا، فهز رأسه وقال ما معناه: لكنه ذكي جدًّا في العمل، ومحترم في تعاملاته، وأظنه كان اليوم مرتبكا على غير عادته.

ما توقعت ليلتها شيئًا مما جرى في اليوم التالي، حين كنت في طريقي إلى محل أبي بحي «التلل» القريب من فندق الضيف، فوجدته فجأة أمامي على الرصيف الواسع، عند

محل أبوعبده الفوال. استوقفني باسمًا كأنه يعرفني من زمن، وسألني بلسانٍ حانٍ حميم عن مقصدي، فأخبرته. كان مقصدنا واحدًا. قال لي دون أن أسأله، إنه كان في الصباحً يزور مصنعنا الذي في ناحية اللبيرامون، وإنه مبهور من مهارة العاملين فيه، ويتوقع أن تزدهر الأعمال مستقبلًا مع أبي وعمي. طيب. سألني عن دراستي فقلت إنني على وشك ابتداء عامي الأخير بقسم اللغة العربية بجامعة حلب، فقال إنه خريج كلية التجارة، ولا يعرف في الحياة إلا التجارة، ولديه محل كبير في منطقة «الأزهر». أنا لم أسأله، لكنني لم أنزعج منه مثلما كان حالي في اليوم السابق، ولأنه كان يتحدث بسرعة فقد تطلعت إليه بالتفاتات خاطفات فوجدت عينيه تلمعان ذكاءً. لم يخطئ أبي في الحكم عليه، وملامحه مريحة، ربما لأن سمرته تضفي عليه سمات الطيبة أو لأنني كنت أميل أيام مراهقتي إلى ممثلٍ مصريٍّ يشبهه، اسمه أحمد زكي.

قطعنا طريقنا القصير في دقائق قليلات، وحين وصلنا إلى محل أبي أخبرونا بأنه خرج إلى عملٍ وسيأتي بعد ساعة، فجلسنا ننتظره بمكتبه بالطابق العلوي للمحل، وتحدثنا كثيرًا. كان هو يتحدث أكثر، وينظر نحوي بحنو المشتاقين مثلما أخبرتني «تالة» فصرفت عنه عينيّ قدر المستطاع، لكني أنست لكلامه وحكاياته عن مصر. لا أدري لماذا. ربما لإعجابي بالشعراء المصريين، أو لطرافة العامية المصرية التي يتحدث بها. لكنني بصرف النظر عن السبب، وجدتني مرتاحة إليه. ومرت الساعة بسرعة وجاء أبي.

التقيتُ به بعد ذلك مرتين، وفي الثانية منهما أعطيته رقم هاتفي بناءً على طلبه، فكان يطلبني أثناء ملل الظهيرة ليخبرني بما فعله في ليلته السابقة ونهاره الجاري ويسألني عن أماكن يريد زيارتها، ويمتدح المقاهي المتراصة تحت القلعة. طلب وقتها أن يقابلني هناك، وبالطبع رفضت. قال إن غرضه شريف، فخفق قلبي وتولاني خوفٌ غامض واضطراب لا تفسير له، وبقيتُ والتلفون موصولٌ صامتة.. في مساء ذاك اليوم، أخبرني أبي بأن مصطفى المصري طلب منه الزواج بي، وعمي «مصطفى» متحمس للأمر. خصوصًا أن الأعمال سوف تتسع في الأشهر المقبلة، لأن الحرير الطبيعي سوف يأتي عن طريق مصطفى، من بلدة مصرية اسمها «أخميم» فيقوم مصنعنا بإنتاج أفخر المفروشات منه والألبسة، لتباع بأغلى الأثمان في الكويت.

كنت قد تعاهدتُ مع أبي على الصدق منذ صغري، فلم أكذب عليه قط، وهو أيضًا لم

يفعل. وكان هذا العهد بيننا يقتضي أن يسكت أحدنا، إذا سأله الآخر عن شيء لا يمكنه البوح به، وهو استثناءٌ لم يحدث إلا في تلك الليلة. احترم أبي صمتي وقام لينام، لكنه عاد في الصباح وسألني بشكل مباشر، عما يجب أن يرد به على خاطبي. فتحيَّرتُ لحظةً ثم ابتسمتُ، فقال أبي: خير إن شاء الله، وعلى كل حال مصطفى..

فجأة، انتزعتني من هدأة السكون وسيلان الذكريات أصواتُ طلقاتٍ متتابعة، من بنادق آلية، تداخلت معها أصداء انفجارات. هب أبي من غفوته مرتعدًا، وقام مستندًا إلى كتفي فأطل بحذر من جانب الشباك، خشية الطلقات الطائشة التي أودت بحياة كثيرين.. ودام القصف حتى ميقات الفجر الذي لم يرتفع أذانه.

***

غلبني النعاسُ مع طلوع الشمس وصمت أصوات القذائف والطلقات، فرأيت في منامي ما كنت أحلم به في صحوي، قبل خمس سنوات.. رأيتني كأنني عروسٌ تدخل الشقة الواسعة البيضاء، التي كان «مصطفى» يقول إنه اشتراها في منطقة راقية عندهم اسمها «التجمع» وهو يدخل خلفي وقد ارتدى حُلَّةً حريرية فاخرة، كحلية اللون. ثم رأيتني أمشي إلى جواره سعيدة وباسمة عند سفح الأهرامات، وحولنا أطفال كثيرون وفتيات يرقصن على نغمات مزمار ودقات طبول صغار، مزركشة الحواف. ورأيت «أمي» جميلةً مثلما كانت دومًا، ومبتسمةً، وأخي «نجاد» يهرب ومن خلفه جيش داعش، وأبي يزرع شجرة أمام منزلنا، ويبكي. وطائراتٍ تُسقط على الناس الويلات، وطفلة تصرخ، ودخانًا..

فزعتُ من نومتي فوجدتني أفترش الأرض، فوق الدثار الذي ينام عليه أبي منذ أسبوع. كيف يحتمل ذلك؟ ووجدته جالسًا عند أول الدرج النازل إلى الطابق الأرضي من بيتنا الذي كان فخمًا ومفعمًا بالحياة، ثم صار خاليًا من الأثاث خاويًا من الروح.. كان أبي يحدق في الفراغ بذهول ويحصي بناظريه الفراغ والعدم، قمت إليه متكسرة الأركان وقام معي مهيض الروح، فهبطنا إلى الباب الداخلي للبيت، وتجاورنا على عتبة بابه. أبي فقد في الفترة الأخيرة كثيرًا من وزنه، ومن رحيق روحه. راح ينظر في الخرابة التي كانت حديقة، فعرفت من هيئته أنه يفكر في الماضي الذي لن يعود. أمي كانت تحب الخضرة والأشجار والأزهار، فكان أبي يظهر حبه لها بالعناية بهذه الحديقة، وبغرس الأشجار للجيران أمام بيوتهم ويشجِّعهم على رعايتها. كان يجلب لهم شتلات

النباتات وصغار الأشجار، ويساعدهم في غرسها ثم يقول لهم ما معناه: ما عاد مطلوبًا منكم إلا بعض الماء. وكان يصف نفسه بأنه بستاني الشهباء.. نحن في حلب، نسمي مدينتنا التي كانت بهية: الشهباء.

أين ذهب عالمي؟ وكيف تبدد فجأة كالدخان! جلستُ هنا منذ خمس سنوات مع محبوبي وخاطبي، وحملتني أجنحة السعادة عاليًا. فتوهمتُ أن الجنة هبطتْ إلى الأرض، وأنني سأعيش الرغد الذي عاشته أمي، فأكون امتدادًا لها. ليس في بلادنا اليوم امتدادٌ ولا جنات، وليس فيها معنى للموت أو الحياة.

كان مصطفى قد عاد إلينا من مصر في زيارةٍ قصيرةٍ ببداية الشهر الأخير من العام ٢٠١٠ وتقابلنا خلالها خمس مرات في أسبوع واحد، وصارت خطبتنا في حكم القريب المرتقب. لا أدري كيف أحببته كل هذا الحب! قلت ذلك أيامها لأستاذتي في الجامعة، وكانت لي كالصديقة، فابتسمت وهي تقول إن الحب لا سبب له ولا تبرير. والمصريون فيهم شيءٌ من الجاذبية العجيبة غير المفهومة، وفي كلامهم مجازٌ ذكيٌّ، مع أنهم ضعفاء في الشعر..

ـ كيف يا دكتورة! اسمحي لي، أنا أختلف معك..

ـ يا بانة، هم مهرة في فن الرواية، لأن حياتهم مزدحمة ومفعمة بالتفاصيل الحياتية. أما الشعر فهو شامي وعراقي.

ـ هذه أذواق يا دكتورة شهلا، أنا مثلًا أميل إلى أمل دنقل وصلاح عبدالصبور.

ـ ومصطفى، ههه..

كان من المفترض أن يأتي «مصطفى» وأمه لخطبتي عقب أدائي الامتحانات النهائية، لكنه لم يأت، فقد اضطربت الأمور في مصر مع نهاية الشهر الأول من العام ٢٠١١، وانتشرت الفوضى في الشهرين الثاني والثالث. فكان من الفواجع التي جرت هناك أيامها، نهب المحل والمخزن اللذين يمتلكهما مصطفى، ولحقت بهما خسائر فادحة.. في منتصف الشهر الرابع من ذاك العام، عاد إلى هنا بعدما لملم أموره التي تبعثرت، واستقر الرأي على أنه سيأتي بما تبقى معه من رأسمال فيسكن في حلب الشهباء، ونتزوج في ذاك الصيف. أبي تردد في الأمر وصارحني أيامها بأنه قلقٌ مما يجرى بمصر، وبأنه لا يظن أن البلاد ستعود إلى سابق عهدها. قال لي الأمر كله بيدك أنت، ولكن اعلمي أن مصطفى يريد أن يأتي بأمه وأخته المطلقة ليقيموا هنا. وصحيحٌ أنه لم يفتقر، لكن وضعه المالي لم

يعد مثلما كان. فهل توافقين على إتمام الزواج؟

ـ نعم.

ـ طيب، على خيرة الله. وسوف أساعده ليستعيد هنا بعض ما خسره هناك، فهو يستحق. وأنت تستحقين.

تعطَّلت الخطط حينًا بسبب مشكلات مالية واجهها مصطفى في مصر، إذ كان ينوي الانتقال نهائيًّا بأهله إلى هنا. وبقينا شهورًا في ارتباكٍ حتى جرت الأمورُ بسرعة في العام الثاني عشر بعد الألفين. فمن أخبار متفرقة وغير مؤكدة كانت ترد من بلدة بعيدة عنا اسمها «درعا» إلى وقائع عجيبة عن انشقاقات لضباط الجيش، إلى صراعات في ريف حلب بين الجيش الحكومي والجيش الحر، إلى طائرات تقصف الأحياء الفقيرة في حلب «الأعظمية، صلاح الدين، الزبدية..» لأن جماعة اسمها جبهة النصرة تختبئ هناك، إلى اقتراب الخطر من حلب، إلى خطف عمي «مصطفى» لابتزاز أبي، إلى كسادٍ عام وتخريبٍ باسم الإله أو الوطن أو الحرية أو غير ذلك من الدعاوى الكاذبة، إلى انغلاق الطرقِ ونهب البيوت، إلى جلستي هذه بجوار أبي على عتبة بيتٍ كان يومًا منزلًا وموئلًا وملاذًا، ثم صار مثل كل شيء مستباحًا.

◊ ضرباتُ القَدَر ◊

استبد بي القلقُ منذ الظهيرة، وأخذت ألوم نفسي متحسِّرًا ومتحيِّرًا بين احتمالين: أهو خطأ أوقعني فيه تسرُّعي، أم هي ضربات القدر تلاحقني؟.. وربما كان الاحتمالان ضفيرة واحدة، جُدلتْ في لحظة سهو لتلتفّ حول عنقي مثل حبل المشنقة، إيذانًا بإعدامي. أستغفرك ربي وأتوب إليك، عساك ترحمني ويمر هذا الأمر بسلام. فأنا لم أكمل بعد شهري الثالث من إعارتي، ولا يعقل أن أعود لبلدتي المطمورة «أبوالمطامير» أجرُّ ذيول الخيبة وسوء المآل، فأكون مثالًا مؤكِّدًا للمثل الشعبي المشهور عندنا: المتعوس متعوس ولو علّقوا برقبته فانوس.

التعاسةُ تلاحقني منذ مولدي في قرية فقيرة وسط أسرة شبه معدمة، ولولا لطف الله بنا لكان الفقر المدقع قد نخر عظامنا، وتركنا كعصف مأكول.. بيتنا، إن كان يجوز وصفه بكلمة بيت، لا جدران له.. فهو واجهة حائطية فيها باب خشبي لا يحكم الإغلاق، خلفه مساحة طولية محشورة بين ثلاثة بيوت، أقدم جوانبها هي جدران بيتنا. كان أبي في شبابه يعمل بكل المهن، فآونة يساعد بؤساء المزارعين، وحينًا يخرج مع عمال التراحيل. وأمي كانت تذهب مع جارتنا «أم سميرة» المشهورة عندنا باسم «السحلية»، فتعملان خادمتين في بيتٍ بدمنهور، لدى زوجة موظف مُرتشٍ بالسجل المدني اسمه فيما أذكر «زكي الزقزوقي» وزوجته كان اسمها «زينات» لكنهاً معروفة بين خادمتيها بلقب: العقربة.

أمي تؤكِّد أن حالنا آنذاك كان ميسورًا، فقد كنا نجد كل يوم ما نأكله، لكن دوام الحال من المحال.. آلام الفقرات منعتها عن مواصلة العمل وأحوجتها إلى الراحة الإجبارية، فثقُل الحِمل على أبي، وحين لحق به السعالُ المزمنُ لم يعد قادرًا هو الآخر على العمل. أختاي الكبريان تزوجتا مثلما تتزوج الفقيرات، وابتسم الحظ لأبي فاستطاع الحصول على المنحة الحكومية الشهرية المسماة «معاش السادات» وكان مقدارها عشرة جنيهات، ازدادت حتى بلغت تسعة وستين جنيهًا أيام كنت بالمرحلة الإعدادية، ثم بلغت أربعة وعشرين ومائة أثناء دراستي الجامعية.. وكان هذا المبلغ يعني أننا نبقى عشرة أيام كل شهر، لا نشكو العوز.

كان القدر رحيمًا بي، إذ هداني عقلي لفكرة عبقرية استطعت معها الحصول على شهادة

جامعية، فكنت في مرحلتي الإعدادية أعطي دروسًا خصوصية لتلاميذ المرحلة الابتدائية، وفي المرحلة الثانوية كنت أدور على القرى للتدريس الخاص لطلاب الإعدادية، ولما التحقت بكلية التربية بدمنهور صرت محترفًا فلم أعد أتقاضى أتعابي بيضات وأرغفة، بل جنيهات معدودات.. وبعد التخرج طوَّحني الطموحُ إلى الإعارة بالخليج فبقيتُ تسعة أعوام منتظرًا حتى سنحت لي الفرصة، وأتيت إلى هنا لتدريس التاريخ وأي مواد دراسية أخرى يكلفني بها مدير مدرسة البنات التي أعمل فيها براتب شهري لو عرفه أبي، لأغمى عليه من شدة الفرح.. أنا في المدرسة لا أرى الطالبات، وإنما أشرح أمام شاشة تنقل إليهن ما أقول، بحسب المعمول به هنا.

قبل ثلاثة شهور، حين انحسم أمري ولاحت لي شموس السعادة، فتأكدت من فوزي بهذه الإعارة. ذهبت إلى بيت الأستاذ «فوزي شحاتة» لأسأله النصيحة، فقد سبقني وأعير للتدريس في هذا البلد الشقيق فأتمّ خمس سنوات، وعاد بعدها ليسكن شقة من ثلاث غرف، في بيت مبني بالحديد المسلح بأطراف قرية «أبوالمطامير» ولديه في البيت ذاته شقة أخرى اسمها «المركز» يعطي فيها الدروس الخصوصية لتعساء الثانوية العامة. يعني صار غنيًّا إلى الدرجة التي لا يحلم بها أمثالي من المدرسين الجدد. على المقهى القريب من منزله، جلست أنصت إلى نصائحه الذهبية: لا تغتر بجريان المال بين يديك، واتق الحسد لأن كل ذي نعمة محسود، وكل ذي مالٍ مقصود.. لا تفكر حاليا في الزواج، فأنت بالكاد قد بلغت الثلاثين ولايزال أمامك العمر، لتسعد فيما بعد بزوجة نظيفة.. هكذا قال.

وحين وجدني مهذبًا وأُحسن الإنصات إليه، طلب لنفسه «حجر معسل» آخر، وأضاف من كنز خبرته: لا تستأمن أحدًا على مالك وافتح حسابًا في أحد البنوك، ولا تخبر أحدًا بذلك.. ولا تسرف في نفقات المعيشة هناك، واقتصر على ما يسد الرمق لتستطيع التوفير.. ولا تحتك كثيرًا بالمصريين واحذر عند التعامل مع المواطنين، وبشكل عام لا تتحدث كثيرًا مع أي أحد، ولا ترتكب المحاذير الثلاثة الكبرى وهي الكلام في السياسة، والكلام في الدين، والكلام عن النساء.. وطبعًا لا تفوت صلاة الجماعة لأي سبب، ولا تلفظ أمام المواطنين كلمة «وحياة النبي» ولا تخبرهم بأن أخاك الأصغر اسمه «عبد النبي» ولا تتسكع في الأسواق، واشترِ الضروريات من «سوق الحراج» وإذا كان مكان إقامتك قريبًا من محل عملك، لا تشتري سيارة.

ليلتها، سريتُ من «أبوالمطامير» إلى البيت سيرًا، وخلال الطريق الذي امتد بي قرابة نصف ساعة، امتلأت بالأمل وأشعرتني النسمات الباردة والسكون، بأنني سأكون عما قريب إنسانًا. وسوف يتغير مسار حياتي للأبد، وقد يأتي اليوم الذي أسكن فيه شقة من ثلاث غرف.. الأحلام المريحة زاد للمحرومين.

استلمتُ العمل فور وصولي، وسكنت هذه الغرفة الواقع مبناها في طرف المدينة ومن بعدها تمتد إلى ما لا نهاية له، صحراءُ من خلفها صحراء. معظم سكان المبنى هنود. وبطبيعة الحال كنت في ابتداء سُكناي هنا متوترًا، ولازلت، لاسيما وقد عرفت بعد أسبوع من وصولي أن المدرس الذي سبقني لم يكمل مدة إعارته وعاد إلى بؤسه السابق، أو بالأصح أُعيد، عقب قيامه بما لا يغتفر. كان يجلس أمام الشاشة يشرح، وفي يده قلم يحركه من طرفه في الهواء صعودًا وهبوطًا، بشكل لفت إليه الأنظار.. اشتكتْ إحدى الطالبات، على اعتبار أنه كان يقصد بذلك إثارة الشهوات في الفتيات، أو يعبر عن اشتهاءاته بالقلم المنتصب.. أقسم لهم بأغلظ الأيمان أنه لم يقصد أي شيء، فقد كان مستغرقًا في الشرح، ولا يعقل أنه قصد إثارة شهوة تلميذاتٍ في سن بناته. فلم يسمعوا له، وأنهوا إعارته قبل أن يتم عامه الدراسي الأول، ليكون عبرة لمن يعتبر. وطبعًا الكل اعتبر وأنا أولهم، فكنت أجلس أمام شاشة الشرح متجهِّمًا وأسرد المقرر الدراسي دون إظهار انطباعات أو انفعالات قد يساء تفسيرها.. وسار الحالُ على ما يرام طيلة الأسابيع العشرة الماضية، وتسلمت الراتب الشهري مرتين. فظننت أنني صرت بمأمن من ضربات القدر، حتى جرى ما وقع معي ظهر اليوم:

كنت جالسًا في حجرة المدرسين حين جاء زميلي الأربعيني «طلال» مدرس الجغرافيا الذي لا يأتي كثيرًا إلى المدرسة، ويفوّت معظم الحصص بجدوله دون خوف من العقاب، لأنه مواطن.. كانت تلك هي المرة الثانية التي أقابله فيها، وفي المرة الأولى بدا لي على الرغم من سُخف ملامحه أنه شخص طيب ويحب المزاح، بحسب مفهوم المزاح المعمول به هنا. وسألني يومها إن كنت أعرف بعض النكات لألقيها على مسامعه، فخرجت من هذا المطب الخطير بقولي إن ذاكرتي ضعيفة، ولا أحب النكات لأن كثرة الضحك تميت القلب. قال مستغربًا إن المصريين لا يعرفون إلا التنكيت والتبكيت، فكيف أكون منهم ولا أكون مثلهم! قلت له العبارة المعتادة عندنا «صوابعك مش زي بعضها» فرد عليّ بالعبارة المعتادة عندهم «يعطيك العافية» وقام عني بسلام.

كنت جالسًا بحجرة الاستراحة مع اثنين من المدرسين الوافدين، عقب أدائنا الصلاة خلف فراش المدرسة الذي لا يفعل شيئًا، إلا إمامة المصلين جماعة. لأنه مواطن. ألقى «طلال» علينا السلام فردَّ عليه الحاضرون باحترام يليق بمواطنٍ ألقى السلام على وافدين. المدرسان قاما خلف الفراش لأداء الواجب التدريسي وفقًا لجدول الحصص، ولم يكن لديَّ عمل حتى موعد الحصة الأخيرة، فسكنت بمكاني. بعد لحظة صمت تكلم «طلال» فسألني عن أحوالي فقلت إنها بخير، وسألني عما أفعله عادة بعد انتهاء اليوم الدراسي. فقلت إنني أبقى بالبيت لإعداد الدروس لليوم الثاني، ثم أستمع إلى القرآن بصوت الشيخ «على بن عبد الرحمن الحذيفي» وأنام عقب أداء صلاة العشاء جماعة بمسجد «الجرداية» القريب من محل سكني.. ورأيت من واجبي أن أسأله عن أحواله على سبيل المجاملة، فبدأ كلامه متحفظًا ثم أفاض فجأة. قال إنه ليس بخير، فقد أخطأ مؤخرًا حين جلب زوجته الثانية لتسكن في الشقة المقابلة، ظنًا منه أن زوجته الأولى لن تكترث! ولا أدري السبب في أنه استراح لي، وباح بأن زوجته الأولى يمنية والثانية بحرينية، وأنه قد تعمد اختيار الفقيرات لأنهن يشعرن بالنعمة ويسعدن بها فيسعدن الزوج، غير أنه اكتشف مع مرور الأيام ومجيء البذورة، يقصد الأبناء، أن النساء سواء.

حافظت على ثباتي، ولم أجاذبه أطراف الحديث خشية أن ينفلت مني لفظٌ يؤخذ عليّ.. سَكتَ برهة ثم نفض طرف جلبابه الأبيض متبرمًا، واشتكى من أن زوجتيه صارتا مؤخرًا تتآمران عليه، وتمارسان الكيد النسوي بأقصى ما تستطيعان.. آثار فيّ الشغف لمعرفة المزيد، غير أنني حافظتُ على سكوني كي لا ينفلت مني لفظٌ يؤخذ عليّ، واكتفيتُ بقولي الذي هو ترديد لقول الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: خلقنا الإنسان في كبد.

ـ يعني إيش أسوي؟

ـ الصبر مفتاح الفرج يا شيخ طلال.

ـ ومن وين نجيب الصبر، وعيشتي صارت ما تنعاش.

ـ خلاص، رجّع زوجتك الثانية مكانها الأولاني.

ـ ما بيصير.

ـ ليه بس ياشيخ طلال، أنت لامؤاخذة يعني بعت البيت التاني؟

ـ لا، موجود.. بس محتاجه، لأني أريد أتزوج.
ـ تاني، قصدي تالت.
ـ والله يا أخي رأيت حرمة سورية، وطحت في حبها. وما بعرف الحين إيش أسويّ.
ـ فعلا، دي مشكلة.

كان يجب أن أقتصر على هذا القدر من الحوار، أو أستأذن منه بأي حجةٍ مقبولةٍ وأقوم من فوري. غير أنني لم أفعل هذا الصواب، وتماديت في الخطأ فسألته كالمستفهم عما يمكن أن تختلف فيه هذه المشتهاة عن الزوجتين الحاليتين، فقال: سبحان الله، الفرق كبير، هادي أجمل وأصبى، ولن تكلفني شيء.

ـ خلاص، مادمت ناوي على خير يبقى ربنا يوفقك.

ـ طبعًا ناوي على خير، حدّ الله بيني وبين الحرام. أنا بس ماني مرتاح، وأبغي أوسع على صدري.

ـ إن شاء الله خير، ربنا يوفقك يا شيخ طلال، ويوسِّع على صدرك.

ساد بيننا الصمتُ لحظات، وبدا أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ومرَّ بسلام، لكنني اندفعت بلا روية ولعب إبليس برأسي، فسألته من دون أي مقدمات عما إذا كان بإمكاني أن أتزوج هنا هذا الزواج المسمى المسيار.. فقال:

ـ إيش تقصد؟

ـ يعني لو ممكن ألاقي واحدة كده غلبانة، على قدي، أتجوزها في الفترة دي بدل قعدتي لوحدي.

ـ تقصد متعة!

ـ أيوه يا شيخ طلال، المتعة حلوة برضه.

ـ أستغفر الله. كيف تقول هادا الكلام، الله يهديك.

ـ قام غاضبًا وتركني جالسًا مثل حجرٍ طحنته يدُ القدر، فصار كومة من تراب. دارت رأسي وخامرني ما يشبه الإغماء، غيرً أنني تماسكت وحاولت الصمود أمام تلك الصدمة. ما الذي دهاني، فدعاني إلى الاستغناء عن حذري الذي التزمت به طيلة شهرين ونصف! أبي كان دومًا يقول «لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته

هانك» وأنا أهنت لساني، وسوف أهان. هم هنا يقولون «الله يهديك» للشخص الذي يرونه قد انحرف، وأنا لم أنحرف ولا أنوي الانحراف مستقبلًا، كل ما في الأمر أنني توهمت لحظة أننا صرنا أصدقاء أو كالأصدقاء، فتجاذبت معه أطراف الحديث دون أن أدري بأن ذلك سوف يغضبه. أستغفر الله العظيم. ماذا أفعل الآن؟

ثم زاد الطين بلةً، ذهولي عن موعد حصتي الأخيرة بالجدول. إذ طوحتني المخاوفُ وركلني الوجلُ، حتى وجدت مدير المدرسة واقفًا لدى الباب ينظر لي باستنكارٍ، فانتبهت من غيابي، وسألته بفمٍ يرتجف:

ـ خير يا حضرة المدير.

ـ مِنْ وين يجيك الخير، وإنت متأخر ع الحصة.

ـ آسف جدًّا. كنت سرحان، وعندي صداع شديد ومغص، دول خمس دقايق بس. هاقوم حالًا. آسف جدًّا، سامحني. أنا آسف والله.

ـ روح الحق شغلك، الله يهديك.

يا ربي. اثنان «الله يهديك» في ساعة واحدة. أنا إذن من الهالكين. لا أعرف كيف ألقيتُ الدرس، وكيف وصلتُ من المدرسة إلى هنا، وكيف سيكون حالي غدًا حين يخبر «طلال» قريبه «المدير» بأنني متحرِّق للزواج، وأنني تجرَّأت ووصفت نفسي أمامه بأنني باحث عن المتعة.. المتعة.. ياويل أهلي! لقد قلت «المتعة» فعلًا، وهذا يعني هنا أنني شيعي. كيف غفلت عن هذا، وكيف السبيل إلى الخروج من هذه المأساة التي أوقعتني فيها يدُ القدر. كيف؟

هل أتصل تلفونيًّا بطلال فأعتذر؟ لا، ربما يكون انشغل بمشكلته ونسي، ولا يجب أن أذكّره. ولكن كيف ينسى؟ وربما تكون زوجتاه تمارسان الآن ما يسميه الكيد، فينتقم مني لأنني تجرأت واتصلت به، بعدما تجرأت وأفصحت عما لا يصح التصريح به.. يا الله.. يا أرحم الرحمين، الليل انتصف ولا أستطيع النوم وعندي غدًا جدول مشحون، فكيف سأذهب إلى المدرسة؟ هل أدَّعي المرض وأهرول الآن إلى مستشفى، عساني أحصل على حجة مقبولة تبرر عدم ذهابي غدًا للعمل، حتى تتضح أمامي الأمور؟.. أي أمور تلك التي أنتظر أن تتضح، لقد وقعت الواقعة، وقد تقودني إلى الهلاك. أو لعل الله يرحمني فينسى «طلال» ما قلته له، ولا يستخدمه ضدي، فيعود النهر إلى الجريان. نهر! هذه البلاد لا أنهار فيها، هنا الصحراء والحر اللاهب كالجحيم، وهنا الآمال كلها.

فارحمني يا رب العالمين، ولا تجعلهم يطردونني من الجحيم إلى الجحيم، فأنت يا ربي أرحم الراحمين.

◊ شمُوسُ السعادة ◊

أمي، الحكيمة جدًّا، كانت تقول دومًا بثقةٍ إن دوام الحال من المحال، فكان أبي المتبرِّم معظم الوقت يرد عليها بالعبارة ذاتها، كل مرة: بلاش كلام فاضي يا ولية يا عبيطة!.. ولأنني أميل إلى أمي الطيبة، كنت أغتاظ من قمع أبي لها ومن استخفافه الدائم بكلامها. ولما استقام عودي واستشعرت شعر الرجولة على جانبي وجهي وتحت أنفي، سألت أمي عن سر تكرارها تلك العبارة، فأجابتني بأنها تتصبر بها على مرار الأيام، وسألت أبي عن سبب قمعه واستخفافه، فقال كلامًا مطولًا ملخصه أنه طيلة عمره لم يلحظ تحولًا في الأحوال أو المآل، فالفقراء التعساء لا مهرب لهم من مصيرهم، وأولادهم يكونون من بعدهم مثلهم. أما المرتاحون من الناس، بحسب وصفه، فهم في سائر أحوالهم مستريحون ويورثون الراحة لذريتهم. فمن المحال تبديل الحظوظ والأحوال.

عارضت أبي أيامها، بأن كلامه قد يصحُّ فقط في نواحينا هذه حيث البؤس الريفي الأصيل، لكن المدن الكبيرة والبلاد البعيدة تشهد ما لا حصر له من التحولات في حياة الناس. والثبات فيها هو الاستثناء. فنظر نحوي باشمئزاز وأزاح الهواء بظهر أصابعه، ثم قال متثاقل النطق: واحنا مالنا يا أهبل ومال المدن، إنت غاوي بغبغة زي أمك، غور دلوقت من قُدامي..

أثبتت لي الأيام أن كلام أمي كان هو الرأي الصائب، صحيح أنني بقيت أكثر من ثلاثين عامًا في الحال البائس الذي ولدت فيه، لكنني انتصرت على البؤس في الثانية والثلاثين من عمري. إذ فزت بالإعارة، وركبت الطائرة، وصرت هنا مدرسًا مرموقًا إلى حدٍّ ما، في مدرسة البنات التعيسة هذه.. وقبل أسبوع كنت مرعوبًا من أثر كلامي مع زميلي «طلال» المواطن الذي لا ينتظم في المجيء إلى دروسه، دون أي خوف من العقاب، فيأمرني مدير المدرسة بسدِّ الفراغ. فأفرح بإرضاء المدير، الحريص على إرضاء قريبه كثير الغياب.. وبعد العذاب الذي كاد يطيح بعقلي، تبدَّل أمس حالي الذي دام حينًا.

أمس «الخميس» كان بجدول تدريسي للبنات المحتجبات عني خلف الحائط حصتان. الأولى والأخيرة. مما يعني عدة ساعات من الجلوس مستريحًا، إما في حجرة المدرسين

الفسيحة أو في حجرة المدير لتسليته إذا لم يكن عنده ضيوف، مواطنون. في استراحة المدرسين جلستُ وحدي حتى أطلت أولى شموس سعدي في الساعة العاشرة صباحًا، إذ دخل عليّ «طلال» مبتهجًا وزف البشرى! بحمد الله سوف يتزوج «الحرمة» السورية، بعد يومين، فقد سارت الأمور بيسر وسوف يتم المراد ويصير له ثلاث زوجات.. هنأته فشكرني، فرأيتُ الفرصة مواتية للاعتذار منه عما قلته الأسبوع الماضي مازحًا، فقال: وإيش قلت، أنا والله ما بتذكر؟

ـ يعني ساعة ما قلت لك نفسي أتجوز مسيار أو متعة أو بأي طريقة، كنت بهزر معاك، بمزح.

ـ ما بتذكر..

ـ أنا خفت يعني تكون زعلت أو اتضايقت.

ـ وليش أتضايق! يا شيخ، هن رحمة لنا. هاهاها.

ـ الحمد لله. وألف مبروك، ربنا يتمم لك جوازتك على خير، أنت يا أخ طلال تستاهل كل خير.

ـ شكرًا يا أخي.

ياه. همّ وانزاح من فوق صدري، بعدما كاد القلق يقتلني. فعلًا دوام الحال من المحال، والأجمل ما جرى بعد ساعة إذ أطلت شمس أخرى من شموس سعادتي، عندما أخبرني فراش المدرسة أن الصراف جاء بالرواتب، وهو الآن عند المدير. وبالفعل، وفي تمام الساعة الحادية عشرة جاءني الصراف ذو الوجه المشرق، سوري الجنسية، وأعطاني راتب الشهر الثالث ثم أخرج من حقيبته أوراقًا وقعتها، وقال إنه ابتداء من الشهر القادم سوف يتم إيداع راتبي في حسابي الجديد بالبنك، بانتظام.. حين تركني بالحجرة وحدي وخرج مسرعًا كعادته، كدت أبكي من فرط الفرح وأنا أدسُّ الراتب بجيبي فيستقر في أمان، ويهدأ قلبي من بعد الاضطراب الذي كان فبان وانزوى.

***

النكديون الذين قالوا «المصائب لا تأتي فرادى» أخفوا النصف الثاني من الحقيقة لغرض في نفوسهم. منهم لله. كان عليهم أن يكملوا العبارة بقولهم: والمباهج أيضًا لا

تأتي فرادى! فالحقيقة أن الأفراح تستدعي الأفراح، مثلما تستجلب الأحزان الأحزان. فلماذا يقولون نصف الحقيقة، وينكدون علينا بعبارات كاذبة يدعون أنها «حِكم».. مثلًا، يوم أمس امتلأ بالمباهج في الصباح وفي المساء، فبعد عودتي من المدرسة أخبرني حارس العقار الهندي «راج» بأن أحد معارفي مرّ عليه وترك له رقم النقّال لأتصل به. أنا لا معارف لي. نظرت في الورقة فوجدت فيها فوق رقم التلفون المحمول: صباحك عسل يا زعيم، أنا «صبحي رزق» ابن عم «مصطفى رزق» صاحبك، ابقى كلمني.

ما هذا! أعرف طبعًا «مصطفى رزق» الذي زاملني في الكلية، ويعمل الآن مدرسًا في «كفر الدوار» لكنني لا أعرف ابن عمه هذا. ولماذا يصفني بالزعيم؟ أنا زعيم! هه.. قطعت خيوط الشك بسكين اليقين فور صعودي لحجرتي، فشحنت تلفوني المحمول واتصلت بالرقم:

ـ آلو، السلام عليكم. حضرتك الأستاذ «صبحي» ابن عم مصطفى رزق، أنا خميس الكفراوي.

ـ أهلا خُمس. إيه يا عم، مصطفى قال لي إمبارح إنك هنا من شهرين، ووصاني عليك. إيه أخبارك الحلوة؟ أنا تحت أمرك في أي حاجة.

ـ شكرًا يا أخ صبحي..

ـ يا راجل، خلي البساط أحمدي. مصطفى قال إنك بتتكسف وإنك ابن حلال مصفي. بقولك إيه، أنا هاعدي عليك الساعة خمسة، نروح نقعد شوية في قهوة المصريين، ماشي الكلام؟

ـ حاضر، هاكون جاهز في الميعاد.

لم أكن أعرف أن للمصريين مقهى هنا، وعلمتُ أمس أننا في زمن الهجاج هذا، لنا بكل مكان في العالم مقاهٍ. ولم أكن قد سمعت من مصطفى بابن عمه هذا، فعرفت أنه من أظرف الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي.. هو هنا منذ عشرة أعوام كاملة، ما شاء الله، وكان قبل ذلك بالكويت لمدة عامين. ومن يوم خروجه من مصر، لم يعد إليها إلا مرتين، لا ينوي أن يجعلها ثلاثة. تحدث معي كأننا أصدقاء منذ الصغر، ورفع التكليف بعد عدة دقائق من ابتداء اللقاء. هو ضحوكٌ ومرحٌ ولا يكف عن إلقاء النكات بطريقة تبعث في القلب ما مات من بهجات. نكاته فاحشة. معظم رواد المقهى يعرفونه ويعرف منهم الكثير، هو شخص كريم خصوصا أنه ميسور الحال، وذو خبرة واسعة بالبلاد

التي نزح إليها المصريون في زمن الهجاج الذي يسميه (التطفيش) وهو لا يتكلم في السياسة مكتفيًا بسبِّ جميع الحكام، ويحب النساء، ولم ألحظ فيه أي ملمح يدل على أنه متدين. دعاني للعشاء قائلًا: بقولك إيه، الجو حلو قوي، النهارده وبكرة إجازة، هاخدك على مطعم حلو قوي بيعمل «مندي» فوق النمرة واحد، يلا بينا.

من دون أن ينتظر موافقتي، قام فاستدعى «القهوجي» وسدد له حسابنا وحساب صديق له كان يجلس بالمقهى مع صديق له، وانطلق بنا بسيارته الفواحة مقاعدها برائحة الياسمين.. المدينة واسعة فسيحة الطرق والأنحاء، ونظيفة، وليس في شوارعها مشاة خصوصًا في هذا الوقت. سار بسيارته قرابة نصف الساعة، سمعت خلالها أذان العشاء وكثيرًا من حكاياته، ثم توقف بنا عند مطعم مكتوب عليه بحروف كبيرة ملونة: شيخ المندي.

الطعامُ شهيٌّ، ويختلف عن الفراريج المشوية التي أقتات عليها منذ أتيت إلى هنا، وصاحبي هذا يؤنس جليسه ويشبع الشعور بالراحة حتى ينعدم القلق. صرنا نتحدث كأصدقاء قدامى. وبعد العشاء أصر على دعوتي لمنزله القريب نسبيًّا من موقع إقامتي، واعدًا بأنه سوف يوصلني بعد «السهرة».. حاولت الاعتذار منه بأنني لا أريد أن أزعج أسرته، فقال إنه لا أسرة له! هو أكبر مني سنًّا بعدة أعوام. سألته مستغربًا عن سبب عزوفه عن الزواج، فقال ضاحكا: إنه متزوج من امرأتين بنظام المسيار. ياويلي. كل الرجال هنا متزوجون من اثنتين، من أين تأتيهم هاتيك النسوة؟ ضحك وهو يقول: تاخد معاي كاس؟

ـ كاس إيه ياصاحبي؟

ـ ويسكي بلدي..

ـ ياراجل، معقولة!

ـ أيوه. جماعة صحابي بيعملوه في البيت، طعمه طبعًا مش ولابد، بس ماشي الحال خُد جرب.

ـ لا ياعم ماليش فيه ، لو ممكن بيبسي أو أي عصير.

ـ براحتك. نسمع بقى أم كلثوم.. قولي ياست، ياعظمة على عظمة.

ـ لامؤاخذة يا صبحي، لو مفيهاش حرج، إنت ليه عايش لوحدك مادام متجوز

اتنين؟

ـ يابني قلتلك مسيار.. مسيار.

عرفتُ منه أن فقراء هذا البلد كثيرون، وكان ذلك مدهشًا لي. وأن معظمهم له ذرية كبيرة العدد، منها بنات يحصلن على شهادات ووظائف ومرتبات، وبعض الآباء لا يريدون التضحية برواتب البنات فلا يجدون حرجًا من تزويجهن حسب نظام المسيار من غير المقيم. وهناك أيضًا المطلقات والعانسات، والأرامل ذوات المعاشات الكبيرة. قال: دول يعني هيعملوا إيه؟

ـ فهمت، يعني زي الجواز العرفي عندنا..

ـ مش بالظبط، النظام هنا هو المسيار.

ـ وممكن أي راجل يتجوز، مسيار؟

ـ طبعًا، المهم يكون راجل.

***

أوصلني صبحي إلى محبسي بعد منتصف الليل بساعة، وكان رأسي مثقلا بالخواطر وبطني متخمًا بلحم الجداء والأرز البسمتي. نمت نوما كاملًا لم أعرفه منذ ثلاثة أشهر، وصحوتُ في موعدي نشيطًا ومبتهجًا بلا سبب. «صبحي» ابن حلال، وفتح عيني على أشياء كثيرة. سأحرص على تقوية صداقتي به، ولتذهب إلى الجحيم نصائح الذين يدعون الحكمة، ويزعمون أن الغربة مؤلمة ولا يجب على المغترب مصاحبة المغتربين.. كلنا في هذه الدنيا مغتربون، نقضي في الحياة فترة إعارة مؤقتة، لا نعرف متى تنتهي. ولا مانع من الاستمتاع بأوقاتنا مثلما يفعل «صبحي» وكل حكيم.. زوجتان ياصبحي! ثلاث زوجات ياطلال! وأنا كل ليلة أجلس وراء زجاج النافذة أحدق في النجوم، لا، لن أستسلم لما يسمونه ضربات القدر. ولن أخاف بعد اليوم من أي شيء. معي الآن بضعة آلاف مُدَّخرة من راتب الأشهر الثلاثة، والعام القادم سيكون معي عشرات الآلاف، وإذا نجحت في البقاء هنا لعشر سنوات تالية، فسيكون معي مئات الآلاف. فمن أي شيء أخاف أو أقلق أو أتوجس، وأحسب حسابًا لكل شاردة وواردة؟ لا أحتاج إلا إلى الشجاعة وبعض الجسارة اللازمة لاقتحام دروب الحياة.

قمتُ من فوق الكنبة متحمِّسًا، وذهبتُ إلى المطبخ بخطى قائد عسكري. أعددت

كوب شاي، وحملته مثل الأبطال إلى الشرفة ومعه علبة السجائر، ولسان حالي يقول: لا تراجع بعد اليوم ولا استسلام للقهر الداخلي وليكن ما يكون، فلن يكون إلا ما كان له أن يكون.. ما هذه البغبغة؟!

مشكلتي الكبرى الآن هي حرماني من النساء، ومعاناة عذاب العزوبية. طيب، ما الحل؟ هل أتقرب من «صبحي» فأعرف منه كيف يصل المسيار إلى الراغبات في الزواج، أم أعتمد على نفسي؟ عمومًا، كوني لا أرى النساء ليس معناه أنهن بعيدات، لا والله، هن قريبات جدًّا ولكن خلف الجدار. في غرفة المدرِّسات كثيرات ممن لا أعرف إلا أسماءهن، ولا أرى منهن إلا العباءات السوداء.. والعيون.. لماذا لا أنتبه للعيون فأقرأ فيها كل ما يختفي خلف النقاب الأسود؟ آهٍ ثم آهٍ من النسوة المستترات الماكرات الراغبات غير المصرحات إلا بالنظرات، من الغد سأنتبه وأرى ما سوف تفصح عنه النظرات، وألتقط خيط المقدمات. وقد خلقت التلفونات لاستكمال الأمور، وشق الطريق العارج من هذا الهجير، إلى نعيم السرير.. يا مسهِّل.. فجأةً، لمحتُ من بعيد نقطةً سوداء عند طرف التلة النائمة على حافة الصحراء المحيطة بالمنطقة. لماذا اخترت هذا المبنى المتطرف؟ كان يجب أن أسكن وسط زحام البيوت، فألمح ما يظهر من الجارات، إذا خرجن للشرفات.. هجيرُ النهار هنا يحول دون الخروج للشرفات، ولا يسمح بالنظر من النوافذ. هجيرُ النهار، والخوف من العقاب المحتمل. لكن شرفتي هذه المتطرفة لا يراها أحد، ومنها أرى امتداد الوديان وصحارى الحرمان.

مرة أخرى، النقطة السوداء ظهرتْ ثانيةً من خلف التلة. ما هذا؟! يا سعدي المفاجئ، هي ليست امرأة واحدة. هاتان امرأتان انفردتا في هذا المكان القفر. فماذا تفعلان؟ لابد أن تحت هاتين العباءتين فواكه الجنات، وهذا الاسوداد يستر اللحم الأبيض المائل إلى الاحمرار، والشعر الطويل المنساب إذا انسدل من الرأس، وارتخت الأنحاء اللينة والأعطاف العطوفة الممشوقة. ماذا تفعل هاتان المرأتان وحدهما، في هذا الموضع البعيد؟ أتراهما تبحثان عن زوج مسيار، أم هما تواعدان رجلين بعيدًا عن العيون؟

للأسف، توارت المرأتان مجددًا خلف التلة، فغمرني الإحباط. لابد أن أهدأ وأصرف نظري عن تلك التلة البعيدة وما يتوارى خلفها، فصلاة ظهر الجمعة الجامعة بعد ساعة، ويجب التهيؤ والاستعداد.. لابأس.. بعد نصف ساعة سأقوم من شرفتي، وبعدها بنصف ساعة سأكون بالمسجد قبل اعتلاء الخطيب المنبر. وبعد الصلاة سأعود

للمرابطة هنا بعدما تكون الشمس قد مالت، فأرى بوضوح أكثر ما تخفيه هذه الصحراوات.. إن ظل هناك ما يُرى.

بعد دقائق عادت للظهور عباءةٌ مؤنثةٌ سوداء، ولحقت بها صاحبتها الأخرى، وازداد بينهما التقارب. ما هذا؟ أتراهما تتعانقان؟ هل بلغ بهما حالُ التحرق إلى هذا المدى، في هذا المدى المفتوح؟ ألا تخافان من هذا الفجور العلني، في بلاد العنت وعمق الرفض للمرأة في العلن، وتقديس الفروج في الخفاء؟ أتراني أتوهم ما أراه؟ لو كان نظري أفضل وأحدَّ، لعرفت ما يجري هناك.. ولو..

***

قمتُ فجأة من شرفتي فارتديتُ على عجلٍ جلبابي، بنيّة الانطلاق إلى خارج البيت، وعند بابه كان حارس المبنى، الهندي «راج» يجلس هادئًا وعلى وجهه علامة الرضا، البلهاء. يوم الجمعة الماضي عَرَضَ عليَّ دراجته لأذهب بها إلى الصلاة، فشكرته واعتذرت دون إبداء السبب الذي لن يفهمه. في كل خطوةٍ إلى المسجد حسنة، والعداد شغال. سلَّمت عليه بتحيةٍ فردَّ بأحسن منها، وسألته إن كان بإمكانه أن يعيرني دراجته، فاتسعت ابتسامته وأعطانيها مرحبًا. انطلقت، وبعد ابتعادي عن المنزل وعن الأنظار، عرجتُ عن الطريق المرصوف وتركته وسرت بالدراجة فوق الأرض الرملية الصلدة، متوجهًا نحو التلة التي خلفها تمرح المرأتان.

الطريقُ بعيدٌ، وشاقٌّ. لكن المغامرة مشوِّقة، والوجهة تستحق بذل المجهود.. اقتربتُ من التلة، ونظرتُ خلفي ومن حولي فلم أجد غيري على امتداد البصر، لا أحد في الأنحاء إلا المتواريتين خلف التلة التي صارت قريبة.. الشمس حارقة، ولكن لا يهم، وأنفاسي تتهدج ولكن قلبي يكاد يطير فرحًا. وصلت إلى التلة، ودرت حولها بالدراجة، فوجدتهما خلف التلة.. هما، يا ويلي، معزتان.

◊ طريقُ الخلاص الأخير ◊

لا يختلف «محمود سيد أحمد» عن أقرانه من شباب «شبرا النملة» في شيءٍ إلا من حيث كونه خجولًا، وأكثر وسامة نسبيًّا وعاشقًا. وقد بدأت قصة حبه الملتهبة حين كان بالسنة الأخيرة من دراسته الجامعية بكلية التجارة بطنطا، إذ التحقت بالكلية في تلك السنة محبوبته «هالة» الساكنة عائلتها في محلة مرحوم.. البنت مشرقة القسمات باسمة الملامح، ومن تحت ستر رأسها المسمى في نواحينا حجاب، تنفلت أحيانًا خصلة شعر تدل على أن المحجوب ناعمٌ وطويلٌ ويميل لونه إلى اصفرارٍ خفيف. في قوامها امتلاء رشيق، وفي لون عينيها عسلية مشوبة باخضرارٍ لطيف، وفي حاجبيها ورموشها شعر لامع كثيف. فلا عجب أن تعد من الجميلات، بل من الفاتنات. وفقًا للمعايير المعمول بها في الحكم على الإناث بهذه النواحي، ولا غرابة في أن تميل إليها قلوبُ الجحافل من الشباب المحروم الذين تكتظ بهم كلية التجارة، ومنهم محمود، بيد أنه كان أوفر من زملائه حظًّا إذ لقيَ عندها قبولًا جعلها تبادله بالنظرات النظرات، وبالرضا الابتسامات. بل هي لم تصده حين حادثها أول مرة. ففي يوم «أزمة البنزين» التي ظهرت فجأة فور انتشار أخبار عن رفع سعره، ثم صارت الشائعاتُ كاليقين حين تأخرتْ في اليوم التالي سيارات ضخ الوقود في آبار المحطات.

وكالمعتاد في مثل هذه الظروف، توقفت المحطات عن العمل أملًا في بيع المخزون لديها بالسعر الجديد، فاختفت السيارات المسماة «سرفيس» من طريق طنطا الإسكندرية، وغيره من الطرق، فكان على الطلاب الذهاب والعودة سيرًا على الأقدام.. في ذاك اليوم رآها فاقترب وتلطف في الحديث إليها وهو يقول: إنهم يقولون إن هذه الأزمة لن تطول، فقالت إن بيتها ليس بعيدًا. وأفاضت دون داعٍ فصرحت بأنها تسكن في طرف «محلة مرحوم» على مقربة من طريق طنطا / بسيون، فقال إنه أيضًا يسكن في طرف «شبرا النملة» على مقربة من الطريق الزراعي الذاهب إلى الإسكندرية.

هكذا بدأ الكلام الذي تلاه الابتسام بلا سبب، وأعقبته عباراتٌ لذيذة التداول وصحبةٌ مبهجة امتدت يومها حتى اقتربا من المطعم والاستراحة المسماة «قرية سمرمون» فمالت هي يمينًا حيث الطريق الفرعي المؤدي إلى بيتها، واستكمل هو مساره إلى منزله فوصله بعد أقل من ساعة سيرٍ مليئة بالفرح. حلّق الإحساسُ المفاجئ بجمال

الشجر، والأسفلت، والبيوت البائسة المتناثرة بغير نظام على مقربة من جانبي الطريق الزراعي.

التقيا كثيرًا بعد ذاك اليوم وتلامست أصابعهما مرات وهما متواريان، وحين سنحت الفرصة اختطفا قبلات قوية وضمهما احتضان.. وعقب انتهاء العام الدراسي نشطت المساعي التي انتهت بجلسة للعائلتين حول مائدة غداء ريفية، تلتها قراءة الفاتحة تمهيدًا للزواج، على شرط عدم الزيارات إلا في الأعياد مراعاة للشكل العام. وعند انتهاء «العريس» من تجهيز شقته في «كفر القرعة» ونجاحه في الحصول على وظيفة ثابتة، يكون الزفاف وكتب الكتاب والدُّخلة، في يوم واحد.. طيب. ربنا يتمم بخير.

لم يتم الأمر بخير. فبعد عامين مرّا مع المرح في مروج العشق، سريعين، فشل محمود في إيجاد الوظيفة الثابتة. ولم يتقبَّل أهل العروس عمله في محل عصير القصب المطل على ساحة محطة القطار بطنطا، لأنهم ـ بحسب قولهم ـ لم ينفقوا نقودهم على تعليم ابنتهم، ليعطوها ـ في نهاية الأمر ـ لعاصر قصب. والأدهى، أن الأحوال المالية للفتي العاصر كانت هاصرة، وحالت دون نجاحه في تجهيز شقة الزوجية.. توالت الأزماتُ المتوقعة وتتالت، بلا جديد عما يجري عادةً في مثل تلك الحالات، ثم تبدّدت الأحلام كلها في يومين. فور ظهور خاطب لا يمكن رفضه، فلديه شقة في طرف الناحية القريبة المسماة «سبرباي» تطل شرفتها على مبنى إذاعة وسط الدلتا، وأبوه يملك كافتيريا في «بركة السبع» تطل على الطريق الزراعي الذاهب إلى القاهرة ولديه سيارة لادا، ملاكي، من موديلات التسعينيات المتينة.. ذهب «محمود» إلى «محلة مرحوم» والتقى بأبي «هالة» في دكانه، فلم يدُم اللقاء إلا دقائق. ختمها سؤال «محمود» الاستنكاري، وجواب أبيها عليه بلا خجل:

ـ طيب يا عمي، والفاتحة اللي قريناها؟

ـ يا بني الفاتحة مفتوحة.. وكل شيء قسمة ونصيب.

في اليوم التالي ذهب «محمود» إلى كلية التجارة، وانتظر طويلًا عند بوابتها حتى لمح «هالة» تأتي في سيارة ابن صاحب الكافتيريا، فأسرع إلى داخل الكلية واستوقفها فور دخولها فلم تدُم الوقفة إلا دقائق، ختمها قولها حين سألها بقلق شاعرٍ فجاوبته بثقة عاهر:

ـ إزاي بسّ يا هالة تعملي فيَّ كده؟

ـ والله بابا أقنعني، واقتنعت..

ـ طيبَ وانا؟

ـ إنت ألف واحدة تتمناك، وكل شيء قسمة ونصيب.

عصفت الفاجعةُ بقلب «محمود» فانقطع عن عمله بمحل العصير لمدة أسبوعين، كان خلالها يطوف في كل يوم مرتين حول «محلة مرحوم» من دون أن يقترب من بيوتها، كأنه يقتدي بقول المجنون: أمرّ على الديار ديار ليلى.. والويل لمن يجعل المجنون قدوته.

لمداواة جروح روحه، نصحوه بالذهاب إلى الشيخ «عبدالمتين عسران» إمام الزاوية المنزوية، التي بمنتصف الحارة المتفرعة من شارع «البحر» وهو الشارع الرئيس بطنطا، فذهب. طنطا ليس فيها بحرٌ، ولا بحيرة ولا أنهار. استمع إليه الرجل باهتمام وهو يمرر أنامله على لحيته الخفيفة، ثم ابتهل إلى الله بأن يخرجنا من هذه الدنيا على خير، واستغفر وحوقل، وبعد ذلك قال باندهاش:

ـ يعني أبوها الراجل الخنزير ده، ما يعرفش إن النبي عليه الصلاةُ والسلام قال: لا يخطبن أحدكم على خطبة أخيه!

ـ قلت كده له ياعم الشيخ. ضحك وقال لى: وهو خطيبها الجديد أخوك أو حتى قريبك من بعيد! وبعدين أنا يهمني مصلحة بنتي بس.

ـ أستغفر الله، إحنا فعلًا في زمن جاهلية. وفعلا، مفيش حل قدامنا إلا الرجوع للإسلام. ربنا يستر علينا. قوم يا محمود صلّ ركعتين واستغفر ربك.

مرت على فجيعة «محمود» أشهرٌ وتزوجت محبوبته، وهو بعد على حاله. متحيرٌ تائهٌ في دروب الجاهلية، وميالٌ للانفراد والبكاء خفية. وكان كثيرًا ما يمرّ في الأمسيات على زاوية الشيخ عسران، فيصلي العشاء جماعة مع الحاضرين قليلي العدد، ويستمع إلى الدرس عقب الصلاة حيث كان الشيخ يشرح في كل ليلة حديثًا نبويًّا أو آية قرآنية، ويختار دومًا المرعبات من مثل: وقعت الواقعة.. قُتل الإنسان ما أكفره.. اقتلوهم حيث ثقفتموهم.. نُصرتُ بالرعب.. جئتكم بالذبح.. الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

وفي إحدى هاتيك الليلات كان «محمود» يجلس بزاوية الزاوية مثل طفل هجرته أمه، وقد توالت عليه الذكريات حتى اهترأت روحه. فكر في الانتحار، والعياذ بالله من الكفر، فبكى بصوت مهزوم. صرف الشيخ الموجودين واستبقاه، وحادثه بحنوٍّ حديثًا

طويلًا أنهاه بقوله تعالى: إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيمَ كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. صدق الله العظيم.

ـ قصدك إيه ياعم الشيخ؟

ـ ربنا قال: ففروا إلى الله.

ـ يعني أعمل إيه؟

ـ روح يا محمود يابني للشيخ «حامد حسان» في أبيس، وهناك هتتحل كل مشاكلك بإذن الله.

***

صباح يوم الجمعة، ذهب «محمود» إلى حيث نصحه الوكيل الفرعي، فوصل من طنطا إلى مدخل مدينة الإسكندرية بعد ساعتين، في سيارة السرفيس، ومن هناك ركب سيارة سرفيس أصغر يسمونها هناك «التوناية» فتأرجحت به حتى أوصلته إلى مقصده.. أبيس اسم لمجموعة من القرى المجاورة للإسكندرية، لكنها تابعة لمحافظة البحيرة الريفية، وهي تُعرف بالأرقام: أبيس ١ أبيس ٢ أبيس ٣، حتى أبيس ١٠.

استقبله شابان ملتحيان عرف منهما أنهما كانا ينتظرانه، وأخذاه إلى صلاة الجمعة في ساحةٍ مسوّرةٍ بالحجر الأبيض، فرأى الشيخ حسان لأول مرة حين اعتلى الرجل الدرج الخشبي المعادل للمنبر، وألقى خطبة أبكت معظم الموجودين. كلهم من الشباب العشريني. كان موضوعها هو الحديث النبوي الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: بدأ الإسلامُ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء.. صدق رسول الله، ﷺ.

بعد أربعة أيامٍ جلس محمود على انفراد مع الشيخ «حامد» وحكى له هول انهزامه، ومعاناته ويأسهً وقلة حيلته، فرد عليه الشيخ بقوله تعالى: وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. صدق الله العظيم. ونصحه بالبقاء هنا مع إخوانه من الشباب، والعمل معهم بمزرعة الدواجن حتى يجعل الله له مخرجًا.

قضى «محمود» أربعة أشهر في عالمه الجديد، لم يذهب خلالها لزيارة أهله إلا مرتين شعر فيهما بالنفور من كل ما حوله، وتعجَّل العودة إلى حيث استراحت روحه للحياة التقية

النقية بأبيس. حتى إنه لم يحتمل في المرتين، المبيت وسط أسرته في «شبرا النملة» ولم يستجِب لتوسلات أمه أو يرقّ لدموعها الداعية إياه إلى البقاء بقربها يومًا أو يومين، إذ كان يطن برأسه صدى الحديث النبوي الشريف: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.. ومرت الأيام.. وذات ظهيرةٍ حارةٍ، عالية الرطوبة، سمع «محمود» ما تهامس به إخوانه من أن بعضهم سوف يذهب للجهاد في ليبيا، لنصرة دين الله والعودة بالناس إلى نقاء الإسلام الأول، فتاقت نفسه للذهاب معهم. طلب مقابلة الشيخ «حسان» وأفصح له عن رغبته في الرحيل بصحبة المجاهدين، فاستمهله الشيخ يومين ثم جاءه بالموافقة وبالبشرى بأنه سيكون بعد يومين مجاهدًا في سبيل الله.

صباح يوم الرحيل للجهاد، حَلَقَ الذاهبون لحاهم وطرحوا عنهم الجلابيب البيضاء وارتدوا الملابس المعتادة، وخرجوا تباعًا من مزرعة الدواجن فوصلوا متفرقين إلى موقف «محرم بك» ومن هناك أخذ كل واحد منهم طريقه إلى «مرسى مطروح» منفردًا، ثم اجتمعوا في صلاة العشاء بالمسجد المتفق على اللقاء فيه، بطرف مدينة مطروح الهادئة في الشتاء. كانوا خمسة، وكان خمسة آخرون قد وصلوا من الصعيد ظهرًا وعصرًا، فاجتمع العشرة بعد الصلاة بالأخ المجاهد البدوي الخبير «زويني» الذي شرح لهم خطة الوصول إلى «السلك» يعني خط الحدود، الفاصل في جوف الصحراء بين مصر وليبيا بسورٍ من الأسلاك الشائكة.

عرفوا أن ثلاثة آخرين سوف ينضمون إليهم في الطريق، وأن المدة الزمنية المتوقعة للوصول إلى وجهتهم هي أربعة أيام، لأنهم سيسلكون دروبًا صحراوية متعرجة بجنوب الطريق الأسفلتي، للابتعاد عنه وعن المناطق المبثوث بها الألغام منذ أيام الحرب العالمية الثانية. وتفاديًا للانكشاف، سيكون سيرهم بعربة «التويوتا» ليلًا ومن دون أضواء، ويسكنون تمامًا من الفجر إلى الغروب ويغطون أنفسهم والعربة بقماش «الخيش» الشبيه لونه برمال الصحراء، تلافيًا للرصد.. سألهم زويني إن كان فيهم من يجيد استعمال البنادق الآلية، فقال له ثلاثة من الصعايدة إنهم معتادون عليها، أعطاهم ثلاث بنادق وصندوقًا فيه خزائن الطلقات، فركبوا مع البقية على ظهر «التويوتا» وركب زويني بجوار السائق الصامت ذي النظرة المخيفة، واللحية الكثيفة.. وفي تمام العاشرة مساءً، انطلقوا تحت جنح الليل.

كان المسلحون يجلسون على ظهر العربة بفخرٍ، والسبعة الباقون بترقبٍ وخوف. وبعد

ساعتيْ سير توقفت التويوتا في مكان لا علامة تميِّزه، وبعد سويعةٍ برز الثلاثة الذين أخبروا بهم من قبل. كانوا مسلحين بالبنادق نفسها، وبماسورة مدفع من النوع الذي رآه «محمود» سابقًا في نشرات الأخبار.. لم يحادث أحدٌ أحدًا، ركب القادمون وسارت التويوتا مجددًا في غمار الظلام.

هي الحرب. بل هو الجهاد. والنصرُ مضمون في جميع الأحوال، فإما الفوز بالشهادة واللحاق بجنة الرحمن بعد معاناة جحيم الإنسان، وإما الفوز بدولة للإسلام ليس فيها قهر ولا خداع ولا انحطاط أخلاق. الحمد الله. شعر «محمود» لأول مرة في حياته بأن وجوده في هذه الدنيا، صار له معنى وهدف أسمى من مطالبه السابقة البائسة. فهو الآن لا يعيش آملًا في وظيفة حقيرة ذات راتبٍ مغموسٍ بشُبهة الحرام، وسط مغموسين في متاهة الجاهلية.. هو الآن حرٌّ متين الإيمان. لا يتسلل إليه الباطل، ولا يستسلم للتعيس من الشهوات الدنيوية الزائلة. أعوام عمره الأربعة والعشرون السابقة، كانت كلها مجرد تمهيد لهذه اللحظة المجيدة التي تحقق فيها بالوجود الحق، وأزاح عن قلبه الزيف والضلال.. سيكون من الآن، مثلما شاء له خالقه عز وجل، سيكون مسلمًا حقًّا ومقاتلًا في سبيل الحق. الله أكبر.

الله أكبر. رددها في سرِّه مراتٍ وبصوتٍ هامسٍ مرات، فامتلأتْ روحه بالبشرى وصار نظره في جوف الليل حديدًا، هذا تأييدٌ من المولى جل علاه، فقد كان قبل ساعات عاجزًا عن الرؤية منذ دخلوا في الظلام، لكنه الآن يرى الأحجار المتناثرة على الأرض كالنجوم، وملامح المجاهدين المجاورين له، والسماء البعيدة.. ويرى نفسه في خَلْقٍ جديد.

***

هذا الطريق الوعر لا نعاس فيه طيلة الليل، إلا خطفًا، فالنوم يكون تحت ستارة الخيش حول التويوتا في النهار.. النهار هنا حارٌّ والسكون تام، وممل، والهواء لافحٌ كفيح النار مع أن الأوان ربيع. من أين يأتي هذا الذباب، ولماذا يلتصق بوجوه النائمين؟ الصمتُ ثقيل.. المجاهدون المستعدون للميلاد الجديد، لا يميلون إلى كثرة الكلام. ربما حذرًا. أو لعلهم غارقون في لحظتهم المحورية الفاصلة بين زمانين، زمن الجاهلية، وزمن الدخول في الإسلام زمرًا. زمن الاستسلام للطغاة من أراذل الحكام، وزمن التسليم لحكم الله.. لا حكم إلا لله.

كانوا جميعًا مستلقين تحت قماش الخيش، وقد شبعوا عصرًا من النوم الممل منذ الصباح، وحين رفع «زويني» طرف الستر ليزفّ البشرى للجميع بأنهم سيتحركون بعد ساعة، بأن غدًا هو يوم الوصول.

جاء قصفٌ.. وثار غبارٌ، وفاحت رائحةُ احتراقِ لحمٍ حيٍّ، وامتزجت بالأنين الصرخات.. ثم ساد الصمت.

◊ لكل مجتهدة نصيبة ◊

برفقٍ يليق بفتاة مصرية في السابعة والعشرين من عمرها، وكان عرسها قبل شهرين، أسندتُ رأسي إلى زند زوجي وضممتُ إليه صدري بينما الطائرة تتهيأ للإقلاع.. وشعرتُ بشيءٍ من الأمان، ولكن محركات الطائرة لما زمجرت، اشتد وجيب قلبي وشهقت وارتجفت ركبتاي. الإقلاعُ مريعٌ، مرعب، يغوص بالقلب في جب سحيق ويسحب إلى الأسافل الأنفاس. أمسكتُ كف «صابر» بيدي ليهدأ بعض فزعي، وأغمضتُ عينًا وحدقت بالأخرى في الرجفة والاهتزاز.. مال «صابر» بشق وجهه الأيمن حتى مسَّ رأسي، واحتضن بكفه اليسري يدي، فسكنتُ وأسبلتُ جفنيّ حتى استوت الطائرة على بساط الريح. وتلاشى الاهتزاز رويدًا، ثم اختفى، فاسترحتُ واستويت في جلستي.. مبتسمًا همس لي، حبيب قلبي بأن الطائرة تستنفر كل قوى محركاتها كي تقلع عن الأرض، ثم تهدأ حين تتحقق الغاية، فتحلق ذاهبة إلى بعيد. قلت في نفسي: هي إذن مثلنا، وحالها مثل حالنا أنا وزوجي «صابر» الجميل.

صامتةً، سبحتُ في بحر أفكاري فرأيتُ أننا لا نشعر بمشقة ما يمر بنا من وقتٍ عصيب، إلا بعدما ينقضي. أما في غمرة الأوقات الصعبة، فنحن نقاوم بكل ما فينا من قوة. وفينا من القوة كثير. وبعد عبور الشدائد نرتاح لحظة، ثم نقضي اللحظات محدِّقين فيما مرَّ بنا، ومررنا منه، فنرى كم كان شاقًّا وكيف كنا محظوظين إذ تخطيناه.. سنواتي السابقة كانت سلسلة من المشقات التي تدرجت شدتها حتى بلغت الغاية والمدى، فانتهتْ تباعًا وصدق قولُ أجدادنا: اشتدي يا أزمات كي تنفرجي!.. لا، هو بيت شعري عميق المعنى، تبدأ به القصيدة المعروفة باسم المنفرجة: اشتدي أزمة تنفرجي، قد آذن ليلُك بالبَلَجِ.

سنة ١٩٩٠ كان مولدي، ليلًا، في بلدة «سنُّورس» القريبة من مدينة الفيوم، وفيها كانت نشأتي الشاقة وحياتي التي اختتمتُ بخيرٍ نصفها الأول حين التقيت بصابر وتزوجته وأحببته. هو يكبرني بعشر سنوات وبضعة أشهر، لكن نحولة وطفولية ملامحه وقلبه البريء، تمحو ما بيننا من فارق السن وتؤكد أننا خلقنا لنكون معًا. هو مثلي مولود بناحية قريبة من الفيوم تسمى «الشواشنة» لا تفصلها عن «سنورس» إلا منطقة عين السيليين التي تعد واحدة من أشهر مزارات الفيوم، أو كانت تعد كذلك قبل أن يلحق

بها الإهمال.

في الفيوم وأنحائها الرحبة، في كل مستويات الحياة. فهي محافظة كبيرة يربطها بالقاهرة طريق يستغرق بالسيارة السريعة أكثر من ساعة، وبالأتوبيس أقل من ساعتين. وفيها بحيرة يأتي إليها المرفَّهون لقضاء الإجازات بفنادقها مرتفعة الأسعار بالنسبة لنا، المناسبة جدًّا بالنسبة إليهم. وفيها مدينة «الفيوم» المعروفة بالسواقي القديمة التي كانت تروي الحقول المحيطة وحدائق المانجو، وحول المدينة قرى ريفية متناثرة تتسع كل يوم ويتزحَّف أهلها إلى حواف المدينة وقلبها، هربًا من بؤس الأرياف وأملًا في طمس معالم المدينة وتحويلها إلى قرية تكتظ بسكانها.

كان من الطبيعي أن تكون سنواتي الأولى صعبة، ليس فقط لأنني فتاة شاءت لها السماء أن تنشأ في الريف الفقير، وإنما أيضًا لأسباب أخرى كثيرة. أهمها أنني منذ صباي ومراهقتي، أحلم بالخروج من تعاسة بلدتي وأصبو إلى أمل يشبه المستحيل، هو أن أعيش بالقاهرة وأسكن شقة لطيفة تطل على النيل. أن أمي سكبت كل حنانها على أخي «رزق الله» الذي يكبرني بعامين، فأفسده التدليل ولم يكمل دراسته وظن أن سعادته تكمن في الزواج، ثم تكون في الطلاق، ثم في الزواج مجددًا، ثم في الضياع، ثم في الانضمام إلى جماعة دينية لا تعرف من الدين إلا مظاهره..

لكن أبي هوّن عليَّ الصعاب وأعانني على استكمال طريقي، فكان يحادثني كثيرًا باحترام ويعاملني باعتباري إنسانة، ولا يستغرب أن لي أحلامًا ممكنة التحقيق. وكان يفرح بنجاحي في الدراسة، وتفوقي على القرينات والأقران أيام الجامعة. وظل يدعمني لأستكمل الدراسات العليا بقدر ما يستطيع، فاستطعتُ الحصول على درجة الماجستير بمساعدته، وبإصراري، وبفضل أستاذتي الدكتورة «آمنة» التي وجدت فيها الأنموذج الأتم للرقي الإنساني. حصلت تحت إشرافها على الماجستير برسالة كان عنوانها: مفهوم الاجتهاد عند الأشاعرة بين إمام الحرمين أبي المعالي الجويني والإمام أبي حامد الغزالي من خلال كتاب «المنخول في علم الأصول».. وبعد شهور، يعني في نهاية العام ٢٠١٥ سجلت رسالة الدكتوراه تحت إشرافها في موضوع: الاجتهادات الفقهية والعلمية عند شيخ الأزهر أحمد بن صيام الدمنهوري المذاهبي، المتوفَّى سنة ١١٩٢ هجرية (١٧٧٨ ميلادية).. وهو موضوعٌ مبتكر، استحسنه أساتذة القسم واستبشروا به خيرًا.

الدكتورة «آمنة» أستاذتي هي أمي الروحية وأحب إنسانة إلى قلبي، وهي تهتم جدًّا

بمسألة (الاجتهاد) وتراها السبيل الوحيد للخروج من حالة العنف الديني المسمى في الإعلام (الجهاد) وتصر هي على تسميته الجهاد الأصغر، وتردد دومًا عبارتها المأثورة المشهورة: لا علاج لأوهام الجهاد إلا بالاجتهاد.. وهي تلزم تلامذتها بقراءة ومناقشة كتاب الإمام جلال الدين السيوطي: الردُّ على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض.

قابلت «صابر» أول مرة عند الدكتورة «آمنة» هو مدرس مساعد بقسم التفسير، وكان على وشك الانتهاء من رسالته للدكتوراه تحت إشراف الداعية المعروف تلفزيونيًّا، الدكتور «علي الفرارجي» الذي قدم استقالته مضطرًّا لاستنفاده المدد الممكنة والاستثنائية للإعارة بجامعات الخليج، إذ طابت له الإقامة هناك والقرب من قنوات التلفزيون باذخة الإنفاق. وكادت حياة «صابر» العملية تتحطم بسبب هجرة أستاذه ونقص المتخصصين، لولا أن ارتضت الدكتورة «آمنة» الإشراف عليه بعد عامين من التعطيل الذي تعرض له.

كنت أستسخف اسمه «صابر عبدالصبور» وأراه جديرًا بما هو غير معلن من السخرية، لكن الدكتورة «آمنة» امتدحته أمامي مراتٍ مع نظرةٍ تفهم البنات من الأمهات مغزاها، ثم حذرتني من تكرار غلطتها تحت وطأة الانهماك في طلب العلم، قائلةً إنني أذكرها بشبابها الذي ولى دون أن تتزوَّج، ولن يعود فتتزوَّج:

ـ بس يا دكتورة الجواز ممكن في أي سن!

ـ لا يا أميرة. لا طعم للجواز بعد الثلاثين، ولا معنى له بعد الأربعين، ولا داعي له بعد الخمسين. وأنا عديت الستين.

ـ ربنا يديك الصحة وطولة العمر يا أجمل أستاذة في الدنيا كلها.

ـ سيبك من دلع البنات ده، وشوفي كده «صابر» يمكن ينفع لك. أنا شايفة إنه مناسب ليكِ جدًّا، وهو إنسان كويس فعلًا.

ـ حاضر يا دكتورة، أوعدك إني أفكر في الموضوع.

أظن أن الدكتورة «آمنة» هي التي جرأته على طلب محادثتي والجلوس معي، ولم أجد مبررًا للرفض مع الطريقة المهذبة التي طلب بها اللقاء، لم أقلق من اللقاء مع سمعته الطيبة وسط الجميع.. جلسنا منفردين، وبعد كثير من الكلام المعتاد قال إنه متعلق بي

منذ فترة، لكن حياءه كان يمنعه من مصارحتي بما يشعر به. كلامٌ لطيف لكنه معتاد. وقال إن الذين يعرفونني يشيدون كلهم بأخلاقي والتزامي، وبأنني من أسرة طيبة الأصل، حميدة السيرة. كلام معتاد. وقال إن غرضه شريف، ولهذا لم يتردد أكثر من ذلك في طلب الجلوس معي، لعل الله يوفقنا لما فيه الخير. كلام معتاد ولكنه محدد ومفيد.

بدأت أشعر به حين كفَّ عن الكلام المتوقع، وعندما ابتسم حين صدمته بأنني أستغرب من اسمه، الدائر بإصرار حول الصبر! قال: هذا ليس بيده. فنحن لا نختار أسماءنا، ولو كان الأمر بيده لاختار لنفسه اسم «أمير عبد الملك» ليتناسب معي، إذا وافقت على الزواج.. ضحكتُ، فلمعتْ عيناه بوهج العاشقين. وأعجبني ذلك منه.

وأعجبني أنه مكافحٌ في الحياة مثلي، ولا يهاب من الآمال والأحلام. وأنه ذكيٌّ لماح، ومع ذلك متواضع. قال إنني أكثر منه ذكاء، لأنني حصلت على الماجستير في ثلاث سنوات وهو استغرق سبعًا، وسجَّلت الدكتوراه عقب حصولي على الماجستير وهو تأخر قرابة عامين. عرفت أنه يسترضيني، وأسعدني ذلك منه. ولما أصر على الركوب معي بسيارة الأجرة لتوصيلي، دون أن ينطق بكلمة طيلة الطريق، شعرت فجأة بأن فيه بعض صفات أبي، من حيث حرصه عليَّ ورعايته لي. بابا جميل.

جرت أمورنا بيسر، ومع أننا لم نستطع شراء بيت الزوجية، فاستأجرنا شقةً مفروشةً تطل على زقاقٍ يؤدِّي إلى «بحر يوسف» لنعيش فيها بالفيوم، إلى حين حصول الكرم الإلهي وتحسن الأحوال. أمي اعترضت على سُكنى المفروش، واعتبرته علامة على عدم الاستقرار مستقبلًا. وأبي وافق وتفهَّم ظروفنا، لاعتقاده أن الاستقرار يرتبط بالزوجين وليس بملكية المسكن.. وفي الشهرين الفاصلين بين الخطبة والزواج، جاءنا فضل الله متمثلًا في إعارةٍ لصابر لمدة أربع سنوات في هذه الجامعة الخليجية، وهي فرصة ثمينة أوجدها لنا الدكتور «الفرارجي» كهدية زواج.. وها نحن نجلس متجاورين في الطائرة، لنعيش معا تجربة السفر الأولى لكلينا، بعدما فعلنا كالطائرة واستنفرنا قوانا للإقلاع من مرحلة حياة شاقة، إلى مرحلة أخرى تبشِّر بكل ما هو جميل: الأسرة، يُسر الحال، الإنجاب، الاستقرار.. وربما، السكنى بعد سنواتٍ بشقة تطل على نيل القاهرة.

***

ليس من السهل على أمثالنا ممن نشئوا وسط الخضرة العتيقة، مهما كانت فقيرة

الأحوال، احتمال العيش وسط سكون الشواهق الخرسانية المحاطة بالصحراء. اكتشفتُ ذلك في اليوم التالي على يوم وصولنا، إذ خرج «صابر» مبكرًا لاستلام عمله، ولم أستطع معاودة النوم بعد خروجه. لكن العيش هنا ليس مستحيلًا، لاسيما أننا سنقضي هنا بضعة أعوام، ثم نعود إلى حيث ننتمي وقد صرنا ثريين. أو على الأقل لا نشكو من عوز.. انتظمت أيامنا هنا بسرعة، وصار «صابر» يقدم المحاضرات في الجامعة، ويؤم الصلاة ويخطب في الجمعات في مسجدٍ بأطراف البلدة، نظير مبلغ إضافي من وزارة الأوقاف فاق التوقع. وعند استقراره في العمل بعد شهر، وبمعاونة أستاذه الفرارجي، أوجدا لي عملًا في دار الأمومة والطفولة القريبة من محل إقامتنا، حيث أقوم بإلقاء الدروس الدينية للقواعد من النساء، لتعريفهن بفضائل الإسلام وتكريمه للمرأة. المكافأة جيدة. في الأسبوع الأول حدثتهن عن أمهات المؤمنين، وسارت أموري بسلام حتى جاءت سيرة السيدة عائشة، إذ سألتني عجوز: وليش العجم الكفرة يسبونها؟.. فقالت أخرى: والله مانّا الكفرة.

اهتاجت القاعة واصطخبت النسوة الجاهلات، على قلة عددهن، واشتد بينهن الجدال. طلبت منهن التزام الصمت، بحزم، وأكدت أنه لا يجوز للمسلم تكفير المسلم مادامَا يتوجهان في الصلاة للقبلة ذاتها.. قالت امرأة: يتوجهون ويكفرون، ما بيعرفوا أنهم ضلوا وخرجوا عن الملة والعياذ بالله.

أفهمتها أن الخطأ والاختلاف في العقيدة لا يعنيان الكفر، وكل مسلم عليه أن يجد لأخيه مخرجًا ولا يظن به السوء ابتداءً. فردَّتْ عليَّ بعنفٍ رافضةً ما أقول، وخاتمةً كلامها بقولها: تدري، شكلك كدي شيعية خبيثة.

شعرتُ بالإهانة فانصرفتُ عازمة على عدم العودة إلى هذا المكان الطافح بالتعصب، وعندما عاد «صابر» للبيت حكيتُ له ما جرى فسمعني باهتمام، ثم أخبرني بأنهم أبلغوه بالأمر. ومديرة مركز الأمومة والطفولة، تريدني أن أذهب إليها باكرًا في الصباح.. رفضت، فقال إنه لابد من ذهابي إليها لإتمام التحقيق.

ـ تحقيق إيه ياصابر! أنا ماعملتش أي حاجة. ولا يمكن أروح هناك تاني، سيبني في حالي الله يخليك.

ـ لازم يا أميرة. الشيخة «نوف» مديرة المركز، تبقى مرات عميد الكلية عندي. علشان خاطري روحي بكرة الصبح بدري، علشان نقفل الموضوع على خير.

ـ مفيش موضوع أصلًا يا صابر.

ـ علشان خاطري..

ـ حاضر يا صابر.

ما توقعتُ أن تبدأ المديرة التحقيق المبكر بسؤالي عن حُكمي على الشيعة، فأعلنتُ لها استغرابي من السؤال، ثم أجبت بأنني لا أحكم على أحد، والله سبحانه هو الذي يحكم على الجميع يوم القيامة. قالت: إنهم انحرفوا عن صحيح الدين ويسبون الصحابة، فهم كافرون! قلتُ: إنهم فرقٌ ومذاهبُ كثيرة، ومنهم من يفعل ذلك ومن يتورَّع عنه، لكنهم ـ في نهاية الأمر ـ من جملة المسلمين.. والناس عند الله سواء، فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، فما بالك بين مسلم ومسلم.

«ومن وين يجيبوا التقوى، أنت ما تعلمت أي شيء».. بحنق مختنق زعقت المرأة بهذه العبارة الجاهلة الجهول، فابتسمت إذ تذكرت فجأة أن كلمة «نوف» تعني عدة معانٍ من بينها: صراخ الضبع.

ـ أنتِ ليش تضحكين؟

بدتْ لي كخادمة تقلِّد سيدتها وقد ارتدت ملابسها، فضحكتُ وضحكتُ أكثر بسبب سذاجة سؤالها، فازداد غيظها مني وقالت ما كان يقوله لنا المدرِّسون في المدرسة الإعدادية: الضحك من غير سبب قلة أدب.. وتخيلتها مدرسةً بائسة في مدرسة «سنهور» الإعدادية بنات. تعيسةً، ومعقدةً، ومطلقة! فضحكت أكثر، فاهتاج جنونها وعمَّ وطمَّ.

ـ أنتِ قليلة ربابة!

لم أستطع تمالك نفسي من سخف منظرها وهي مغتاظة، فاستسلمت لهستيريا الضحك.. وقمتُ مسرعةً من أمامها، كالهاربة، وأنا أضحك.. ووصلتُ إلى مقر إقامتنا الفندقي، الفقير، وأنا أضحك.. وهأنذا عائدةٌ اليوم إلى مصر، وحدي، وأنا أبكي.

◊ المخدوع ◊

في ابتداء عملي هذا، كانت النسوة القاهريات والعراقيات الساعيات إلى زيجةٍ أو علاقةٍ مفتوحة، يتوددن إليَّ ليخدعنني بمعسول النظرات وشهيِّ الإشارات، فخدعتهنَّ بغضِّ النظر عنهنَّ كأنني تقيٌّ وبقلَّةِ الكلام معهن كأنني زاهدٌ.. وبهذا سارت أيامي هنا بسلامٍ، هادئةً.

❋❋❋

أنعم الله عليَّ بنشأةٍ كريمةٍ ناعمة في بيت واسع بأطراف بغداد، وكان في مدخل البيت حديقة. نعم. كان لكثير من البيوت البغدادية أيام مولدي حدائق في مداخلها، وفي داخلها أمان تام. وكنت، مع أن معظم الناس اليوم لن يصدقوا ما سوف أقول، أقوم يوميًّا باللعب مع أقراني في حدائق المنازل والمنتزهات العامة القريبة من بيوتنا. وكان أهلونا، والله على ما أقول شهيد، لا يقلقون علينا ولا يفزعون.. سبحان مغيِّر الأحوال.

في العاشرة من عمري، ومع دوام نظري كل صباح في المرآة أثناء مروري بالمشط على شعري، أدركت أنني متميز شكلًا عن بقية الصبيان. وانتبهت بعد حين إلى أن أختي «أزهار» أزهى جمالًا من سائر الصبايا والعذراوات. هي تكبرني بأربعة أعوام غير عجاف.

أيام مراهقتي أدركتُ أن سبب التميز عن بقية الأقران هو أننا ثمرة زواج أبٍ عراقي بأمٍّ من سورية، وهذا أمر قليل الوقوع لأن البلدين عربيان ومتجاوران وبينهما حدود سياسية مشتركة طويلة جدًّا كالهموم القومية ومحكومان بحزبٍ واحد اسمه المختصر «البعث». ومن المعروف أنه لا بعث إلا بعد الممات، ومعروفٌ أيضًا أن المتشابه في بلاد العرب يتنافر ولا يمكنه التآلف، ويميل بطبعه إلى الاختلاف والتنازع.. والأنكى أن البلدين يتشابهان في أمور أخرى كثيرة، أهمها أنهما جمهوريتان كانتا سابقًا محكومتين بخلفاء وأمراء وملوك، ثم صارتا تحت حكم رئيسين، كلاهما عسكريٌّ يتفاخر بهزيمته في الحرب. مع إيران شرقًا ومع إسرائيل غربًا.. ومن المعروف في ثقافتنا العربية المعاصرة أن الحاكم المهزوم يدوم، وكلما كانت هزيمته أفدح، فحكمه أدوم وسلطانه أقبح.

تزوج أبي بأمي بعد قصة حب هادئة جرت وقائعها عندما أوفدته الحكومة العراقية للحصول على الدكتوراه من فرنسا في مجال الفيزياء النووية، وهناك التقى بأمي التي كانت قد هربت من سوريا مع أسرتها، واستطاعت الحصول على الجنسية لأن أمها المطلقة كانت فرنسية.. تزوجا في اليوم الثالث من شهر حزيران سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف، في اليوم التالي مباشرة على حصول أبي على درجة الدكتوراه التي لم تفده بشيء لأن إسرائيل قامت في ذاك الأسبوع بقصف المفاعل النووي العراقي بطائرات أمريكية، فاحتار أبي حينًا ثم عاد بزوجته إلى بغداد زاعمًا أنها فرنسية، وعمل مدرسًا للعلوم.. وعانى من عديد من الاضطرابات النفسية.

***

ولأن أبي كان عراقيًّا أصيلًا صادق الملامح، ولأن أمي لم تعرف رجلًا غيره، فقد ورثتُ عنه العقل ومتانة البنيان وكثافة الشعر. وكان بإمكاني عقب البلوغ أن أزين وجهي مثله بشارب كَثٍّ مهيب يجعلني مثل أبي شبيهًا بالرئيس «صدام» الذي يقسم العراقيون بحياته. لكنني استجبت لرغبة أمي ولم أطلق شاربي إرضاءً لذكراها في قلبي، فقد كانت تأنف من وجه أبي وتعاف شاربه ولا تحتمل ملامحه. أختي «أزهار» هي التي قالت لي ذلك نقلًا عنها، فصدقتها نظرًا لوفرة الشواهد على صدق ما أخبرتني به. فأخذت بالأحوط وحلقت لحيتي وشاربي منذ نبتا في وجهي، ولم أسمح لجذورهما يومًا بالنمو أو الإثمار الذي قد يوردني موارد الهلاك، إذ كان الساكن ببغداد إذا التحى فهو ليس بمأمن من الوقوع في الشباك الكثيرة، لأن الرئيس حليق اللحية. والناس في بلادنا على دين رؤسائهم.

ولأن أمي من أصل سوري فهي مليحة مثل معظم السوريات، وقد ورثت عنها بياض بشرتها ولون عينيها المائل إلى الاخضرار. وكذلك أختي «أزهار» التي أسهم حسنها في تعاستها، إذ توافد عليها الخاطبون فتزوجت وهي على أعتاب الثامنة عشرة من عمرها بمهندس يكبرها بعشرة أعوام، لم يحسن عشرتها إلا شهورًا، ومع ذلك ارتضت الاستقرار معه في بلدة قريبة من الموصل، فيها مصفاة البترول التي كان يعمل فيها.. وربما كانت الآن حية هي وزوجها وأولادها، وربما تكون المآسي الأخيرة قد أراحتهم من الحياة. لا أدري، فقد انقطعت عني أخبارهم منذ فترة.

***

في حرب الخليج الأولى، المسماة عندنا «قادسية صدام» قُتل أبي ضمن مليون الشخص الذين فقدوا حياتهم دفاعًا عن حدود سياسية ملتبسة، رسمها الإنجليز بين العراق وإيران. وحظينا بمعاش الشهداء فاستطاعت أمي أن تعولنا بلا عوز، وأن تدخر منه مبلغًا أعطته لعمي فأعانه على استكمال تعليمي إلى أن وصلت إلى الجامعة.. وكان مصرع أبي أيام كنت رضيعًا، وبالتحديد يوم «عيد الجيش» الموافق لليوم السادس من الشهر الأول من السنة الخامسة بعد الثمانين وتسعمائة وألف.

وفي حرب الخليج الثانية، أيام غزا الرئيس صدام الكويت فتكالبت علينا الأممُ وعصفت بنا أمريكا تحت ما يسمى «عاصفة الصحراء» كنتُ في السنة الأولى بالمدرسة القريبة من البيت. وأودعتني أمي عند عمي «عامر» كي تفر إلى فرنسا، على وعد بأنها سوف ترسل مَنْ يأخذني أنا و«أزهار» لنعيش معها هناك.. لا أحد يعرف ماذا جرى بعد أن خرجت أمي قاصدة الحدود العراقية السورية تمهيدا للطيران من هناك إلى «باريس» التي كانت تسميها عاصمة النور والجمال. أنا لم أرَ نورًا ولا جمالًا، لأن أمي لم ترسل أحدًا، ولم تعد. بقيتُ في بيت عمي لأعوام طوال، فاستكملت تعليمي بالنقود التي تركتها أمي لعمي، وبالمعاش الذي كان يصرف لنا باعتبارنا من أبناء الشهداء. ومع أني كنت أحن لأمي التي عرفتها، وأفتقد أبي الذي لم أعرفه إلا من الصور، إلا أنني كنت كثيرًا ما أمرح في بيت عمي الواسع، وفي الحديقة التي أمامه، وفي المنتزهات القريبة.. ولأن عمي «عامر» كان عضوًا بالحزب ومتحمسًا له، فقد كان يلقنني مع أولاده مبادئ حزب البعث الثلاثة «الوحدة، الحرية، الاشتراكية» وشعاره الخالد: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.. ولأن بواطن الأطفال مثل طين الصلصال الطري، تقبل كل نقش، فقد آمنت تمامًا بما كان يُتلى عليَّ في المدرسة وفي المنزل وفي الطرقات.

في حرب الخليج الثالثة، المسماة إعلاميًّا «حرب تحرير العراق» على اعتبار أن التحرير والتدمير صنوان، كنت قد التحقت بالجامعة على أمل الحصول على شهادة. كان ذلك في العام الثالث بعد الألفين، وفيه ذهبنا مع عمي «عامر» على عجل، فور دخول القوات الأمريكية البصرة، فسلكنا الطريق البري الطويل ليلًا. المخيف. حتى وصلنا إلى الأردن.

***

لم أجد في الأردن وحدة ولا حرية ولا اشتراكية، ولم أسمع هنا قط الشعار الذي ظننته

سابقًا خالدًا. وجدت فقط ملاذًا ومأوى ومهربًا، فيه من العراق نازحون، هم الطبقة الأدنى. ومن فلسطين مستقرون هم الطبقة الدنيا. وعشائر أردنية يظنون أنهم الطبقة العليا.. الحياة هناك كانت غير مريحة، لكنها كانت ممكنة وغير مستحيلة وفيها بعض الأمان.

خطر لي أيامها أن أعبر إلى سوريا فأتقصَّى أخبار أمي، وأبحث عن أهلها في «اللاذقية» عساني أجد خبرًا عندهم أو أجد في ديارهم هدى. أخبرتُ عمي بما أفكِّر فيه، فقال: إن دخول شخص عراقي إلى سوريا اليوم، يشبه الانتحار! سألته: وما بال المبادئ البعثية المعمول بها هناك؟! فأجابني: لم تعد لدى العرب مبادئ.. وبكى بحرقة.

أمضيتُ عامًا بالأردن يمكن تلخيصه في عبارات قصيرات: حاولتُ العثور على أي عمل ففشلت. أحببتُ فتاة من أسرة ميسورة الحال، تسكن بشارع فاخر المنازل اسمه «بسمان» فسخرت مني. سعيت للحصول على تأشيرة سفر إلى فرنسا، فلم أجد إلى ذلك سبيلا. حاولت التقرب من الإخوان المسلمين في عمان عساهم يجدون لي سبيلًا لدخول السعودية، فلما أخبرتهم بأمنيتي قالوا إن دخول عراقي إلى السعودية مستحيل. خطرت لي فكرة العودة إلى العراق وليكن ما يكون، فصرف عمي الفكرة عن رأسي بقوله: إن بيته هناك تم تدميره أثناء دخول الأمريكيين بغداد.. احترتُ حينًا، حتى هداني عمي «عامر» سواء السبيل حين قال: جرب مصر.

***

من عمان إلى مدينة «العقبة» ركبت سيارة أجرة، ومن العقبة إلى بلدة اسمها نويبع ركبت سفينة عريضة اسمها «العبَّارة»، ومن أطراف سيناء إلى أطراف القاهرة ركبت كل وسائل الانتقال حتى أوصلتني أيامي إلى منطقة فسيحة خلف منطقة اسمها: السادس من أكتوبر.. هناك وجدت عراقيين كثيرين يختبئون من ظلم الحياة، وأنا الآن أعيش بينهم مثل ميتٍ. في الصباح أذبح الفراريج وأنظفها لزبائن الدكان، وفي المساء أجلس بغرفتي السطوحية وأطيل التأمل في السماء، فلا أجد فيها إلا نجومًا بالغة السخف والغباء. وأتفكر في الأرض فلا أجد إلا صحراء يعيش فيها العرب، ما بين مخدوع ومقموع وممنوع. وأنظر في حالي وقد تخطيت الأربعين من عمري، فلا أجد إجابة واحدة للسؤال الدائم: لماذا خُلقت؟!

◊ مذهب ولا حاجة ◊

لا يظهر منا لغيرنا، إلا أقل القليل. وما نبوح به ونطرحه على الآخرين، مستفهمين أو مستغربين أو معلنين الاعتراض والاستهجان، ليس هو الخطيرَ الحرجَ من الأسئلة. فكل منطوقٍ به هينٌ بالقياس إلى المسكوت عنه من خواطر وتساؤلات، لا نستطيع إسماعها لغيرنا فنتركها تدور في رءوسنا وتدور بها بلا كلل، وبلا أمل في وجود الإجابة.. والأسئلة الأخطر والأدهى والأهم، غالبًا ما تكون بسيطة وقصيرة وخالية من التعقيد. فكل تطويلٍ وتعقيدٍ هو تمهيدٌ للإجابة وإيحاءٌ بما يجب أن تكون عليه، ولذلك كنتُ دومًا أهمسُ لنفسي بأن السؤال الطويل، هو نصف الإجابة المتوقعة.

عجيب.. البساطة، هي السبب في ستر السؤال وحبسه في نفوسنا! إذ الأسئلة البسيطة لا تصلح لها الإجابات المطولة الخادعة، فحين يهصر قلوبنا السؤال: ما سبب وجودنا؟ لن تجدي الإجابة المزخرفة بخوادع التأرجح بين الإيمان الساذج والإلحاد الصريح، وبين ادعاء التعقل واهتياج المشاعر. وبين مزالق القلق من النزق، وشبهات الجنون عند الخروج عن المألوف.. وفي بلادنا المنكوبة، معطوبة العقول، لا يغتفر «الخروج» عن المألوف ولا «الخروج» على السلطة الحاكمة ولا «الخروج» من تعاسة الإجماع العام. ومن هنا نتحاشى الصدام بالصمت، وندَّعي أن السكوت حكمة والسكون فضيلة، فيغدو التغابي ذكاءً ماكرًا ننفلت به من شراك المصائد المنصوبة في الزوايا.. ونسير مع القطيع في وسط الطريق، المؤدي بنا لا محالة إلى الهلاك. كأن الأنس بالبؤس، أحسن حالًا وأسلم مآلًا من خطر الانفراد.

في الفترة الأخيرة، أعني بعد خمود المجهود وانطفاء الوهج وتحطم الأحلام، صرتُ هادئًا وديعًا كالزهور الذابلة. والعجائز العابدات. واعتدتُ المجيء صباحًا وأحيانًا في المساء، للجلوس أمام هذه الطاولة الأخيرة في هذا المقهى الهادئ الفسيح المسمى «سُدى كافيه» وهو المشهور هنا بأنه أقدم مقاهي العاصمة، فأجلس يوميًّا مستسلمًا لدوار دوران التساؤلات برأسي، وقانعًا برؤية العابرين من خلف زجاج النافذة الواسعة، ومستعصمًا من الجنون المتوقع باستعمال ما بقيَ فيَّ من العقل.. وكنت اليوم، عندما جاءت «سهام» مستغرقًا في السير بسراديب سؤالٍ ساحرٍ: هل يتحرك الكون بالقصد، أم بالاضطرار؟ وأسلمني هذا السؤال إلى سؤال: وما سبب الحركة؟ فطوحني

هذا السؤال إلى سؤال: ما جدوى الوجود؟

ثم تناسلت في رأسي الأسئلةُ فسافرت بي إلى الماضي البعيد، ورحت أحرِّك أطراف أناملي على حافة فنجان قهوتي الموشى بالنقوش الخزفية الملونة، متفكرًا في «أرسطو» الموصوف منذ القدم بأنه المعلم الأول للبشرية، فيدهشني منه هذا العتهُ العتيدُ الذي دعاه إلى القول بأن الله محركٌ، لا يتحرك! فهو السبب الأول في حركة الكون الدوار حوله، لكنه لا يدري بهذه الحركة ولا يكترث. هذا خبث فلسفي، لتبرئة الإله الأرسطي من شرور العالم. كانت عقارب الساعة الحائطية المعلقة أمامي تشير إلى أن النهار سوف ينتصف بعد دقائق، وكان الملل قد تسلل إلى الأنحاء كلها، وكاد يستولي على الكون. ولحظتها انتزعني من غمرة غرقي في خواطري، عطرٌ عبقٌ ساحرٌ سبق صاحبته التي جاءت نحوي بملامحها المشرقة، الموحية من فرط الحسن بالابتسام:

ـ حضرتك الأستاذ حسن، صح؟

ـ صح. أنا حسن، للأسف. بس من غير أستاذ ولا حاجة.

ـ لا يا فندم، حضرتك أستاذ كبير.

البنتُ أنيقةٌ ونظرتها ماكرةٌ وبالتالي ساحرة، وشفتاها شهيتان. في هذا العالم جميلات يصل سحرهن إلى حد الفتنة، لكنها تصغرني بقرابة عشرين عامًا، فهي في حدود الخامسة والثلاثين من عمرها، وعليَّ اصطناع الوقار.. ما الذي يدفعها نحوي ويحدو بها إلى اقتحام خلوتي المزمنة؟ سيظهر كل شيء.. وقد لا يظهر أي شيء.. سنرى ما سوف يكون.

قالت متودِّدةً إن اسمها «سهام» وإنها تعمل في مؤسسة دولية كبرى اسمها «جالوب» وتحتاج الجلوس معي، ولو لعشر دقائق. قلت في نفسي: اجلسي دقائق أو ساعات أو أيامًا! وقلت لها: خير؟.. زاد وجهها إشراقًا وفتنةً وهي تضع على الطاولة حقيبة يدها الفاخرة، أرجوانية اللون، وتستوي كالأميرات في جلستها على الكرسي المقابل. سنرى ما سوف يكون. أخرجتْ من حقيبتها أحدث أجهزة «الآي باد» وفتحته وهي تقول إنها كانت تتابع مقالاتي ومواقفي منذ سنوات، من أمريكا، وكانت تحلم باليوم الذي تراني فيه وتتحدث إليَّ مباشرة، وها هي الفرصة قد سنحت أخيرًا لها، لكنها الآن مكلفة بعمل استبيان لدراسة سوف تصدرها المؤسسة بعد سبعة أسابيع في ملف خاص عنوانه: اتجاهات الرأي العام في البلاد العربية أثناء وبعد أحداث الربيع العربي.

قلت في نفسي مستبشرًا: أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا! وقلت لها إن تعبير «الربيع العربي» لم يعُد مستعملًا. سألتني إن كنت أفضل عليه تعبير «الثورات العربية» فقلت إنه صار مستثقلًا، وما عاد الناس يقبلون كلمة «الثورة» التي كانوا في بدايات الأحداث يحبونها ويعتزون بها.. قالت: صحيح، رايت يو آر، أوكي!

***

أشرتُ إلى فتى المقهى فجاء يختال باسمًا من الحسن. وسألتها عما تريد أن تشربه فقالت: عسير لاموو! ففهم الفتى من فوره أنها تريد عصير الليمون وانطلق ليحضره لها، وانطلق في رأسي سؤال: ماذا تريد مني هذه الفتاة المفعمة بالأنوثة، ولماذا تشاغبني بعض نظراتها، مع أنها في العموم متحفظة؟ سنرى ما سوف يكون. حافظتُ على سكوني الوديع وانتظرتُ خطوتها التالية، فقالت إن لديها مجموعة أسئلة تود أن تعرف إجابتي عنها، وبدأت بقراءة سؤال سبقه تمهيد طويل، معتاد:

ـ حضرتك كنت واحدا من الذين تنبئوا بالأحداث، وفي مقالتك المنشورة قبل اندلاع الثورة بشهور تحت عنوان «الضغوط وأذرع الأخطبوط» أوضحت أن الهياج الاجتماعي سيبدأ في أطراف البلاد، لكنه لن يحسم إلا في العواصم. وفعلًا، بدأت الأحداث التونسية في بلدة «سيدي بوزيد» والمصرية في مدينة السويس والسورية في مقاطعة «درعا» والليبية في «بنغازي» واليمنية في «تعز» وعدن. وقلت في مقالتك إن السبب في هذه الظاهرة المتوقعة، هو ذلك التحيُّز الحضري الواضح، في برامج التنمية الحكومية، وإهمال أطراف البلاد، مما يؤدي إلى زيادة الضغط على المواطنين هناك. وتوقعت في هذه المقالة المهمة، أن انتقال الثورات من الأطراف إلى العواصم، سوف يصحبه قدر كبير من التآمر الخفي الذي سميته أذرع الأخطبوط.. واليوم، وفي ضوء هذه النظرة المستقبلية التي ثبت أنها كانت صحيحة، وبعد وقوع أحداث كثيرة: ما الذي تتوقعه الآن بالنسبة إلى الفترة القادمة؟

ـ ولا حاجة..

ـ يعني إيه؟

ـ ولا حاجة. يعني بالعربي الفصيح: لا شيء. وبالإنجليزي الصريح: nothing.

***

ارتبكتْ، فصارتْ أشهى. لكنني أشحتُ بوجهي جانبًا، كأنني أتأمل العجوز العابرة من خلف زجاج النافذة، وفي تلك اللحظة الملتبسة جاء «الجرسون» بكوب الليمون فشكرته برقة ورتبتْ أوراقها القليلة ولمستْ شاشة الآي باد مرات، كأنها تبحث عن شيء. كان ذهني مشغولًا بأمرٍ غريبٍ ظهر منها، هو أنها تتحدث العربية كالطفلات! لكنها قرأت السؤال بفصاحةٍ، ولم تخطئ في النحو. وهذا في بلادنا غير معتاد. سألتها عن ذلك فقالت إنها تعرف الفصحى أفضل من العامية! لأنها تعلمت اللغة العربية في المدرسة الخاصة وأثناء دراستها العليا، أما في البيت فكان الكلام بالإنجليزية.. هي هاجرت مع أبيها، الطبيب، أيام كانت في سن الخامسة. ولما ماتت أمها بسرطان شرس مفاجئ، تزوج أبوها امرأة من «بورتوريكو» وأنجب منها، وكان مجتمع المنزل أمريكيًّا جدًّا، لغة ومعنى.. سكنتْ لحظة، ثم ابتسمتْ وهي تسألني إن كان بإمكانها استكمال الأسئلة، فأومأتُ موافقًا:

ـ السؤال الثانى: بصفتك كنت من المبشرين بالثورة أو من المتوقعين لها، وكان لك دور كبير في بدايتها وشعبية كبيرة بين الناس. أعتقد أنك لاحظت بوضوح، أن الحالة الثورية أدت إلى ظهور اتجاهات وجماعات جديدة، وإلى تقوية وانتشار للاتجاهات والجماعات التي كانت موجودة. فكان المشهد العام حافلًا بالكثير من الرؤى المتنوعة والمتعارضة أحيانًا، ما بين أطياف الاتجاه المعروف إعلاميًّا بالإسلام السياسي: الإخوان المسلمين، السلفيين، الأزهريين، الجهاديين، الوعاظ. وأطياف الاتجاهات اليسارية والعلمانية والليبرالية، على اختلاف درجاتهم. وهناك رأي يقول إن هؤلاء جميعًا هم الذين قاموا بالثورات في البلاد العربية، ورأي آخر يقول إنه تم استعمالهم لإقامة هذه الثورات. ومن هنا يأتي السؤال عن دور هذه القوى الاجتماعية اليوم، وما الذي يمكن أن تفعله في المرحلة القادمة؟

ـ ولا حاجة.

لم ترتبك من إجابتي، بل ابتسمتْ كأنها كانت تتوقعها وظهرتْ على خديها غمازتان، فصارت أبهى وأشهى. وقبل أن تعلِّق، اعتدلتُ في جلستي وسألتها عن هذا الأسلوب الرصين وغير المعتاد الذي صيغت به أسئلتها، فقالت بتلقائية: إن أسئلة الاستبيان روجعت أكثر من مرة تحت إشراف البروفيسور «ديفيدسون كرونبرج» المحلل السياسي الكبير. أظنك سمعت عنه، هو يهودي غير صهيوني، ومن المدافعين عن إقامة دولة

للفلسطينيين خارج منطقة النزاع..

لم أسمع بهذا الرجل من قبل ولم أسمع برأيه هذا، مع أنني سمعت معظم ما قيل حتى صمت أذناي وتوقف عقلي عن مناقشة أي قول.. سألتها إن كانت فكرته هذه تلقى قبولًا؟ فقالت ما مفاده إن هذا الحل لم يطرح للنقاش على نطاق واسع بعد، نظرًا لأن المشهد العربي العام مرتبك حاليًّا وفيه كثير من الجهل. ضحكتُ، فأضافتْ بجديةٍ لطيفةٍ ما ملخصه أنها التقت مؤخرًا بعددٍ من الذين استطاعوا البقاء في الساحة العامة، فوجدتهم مسطحين! ثم وصفتهم في غمرة حماسها المفاجئ بأنهم «حمقاء».. صححتُ لها:

ـ قصدك: حمقى.

ـ أيوه طبعًا، وأغبيا كمان.

أكملت كلامها كأنها لم تخطئ، ولم أصحح، فأعجبتني هذه الاستهانة.. أعتقد أن الاستهانة، المستهان بها، هي موقفٌ عميقٌ من اللاجدوى، لا يصل إليه إلا الحكماء من أمثالي والغالبية من الشباب. والبديع هنا أن المستهين يُستهان به وهو في المقابل يستهين بمن ينظرون إليه بعين الاستهانة. ولعل من أسباب ذلك، تلك المخادعات التي لحقت بمنظومة القيم، حيث...

ـ إنت سامعني يا أستاذ حسن؟

ـ هه؟

ـ لأ، لأ. إنت سرحان خالص! طيب. أوكي، هاسيبك دلوقت وآجي لك بكرة الصبح. أنا عارفة إنك كل يوم بتكون هنا من بدري، إذا كان مفيش مانع. إنت سامعني ولَّا لسه سرحان!

ـ سامعك طبعًا.. معلش، سرحت شوية.

ـ طيب، عندك إيه بكرة الصبح؟

ـ ولا حاجة.

***

قامت مثلما جاءت، باسمةً، عنفوانية الأنوثة. فسلَّمتْ عليَّ بلمسةٍ حانية من أناملها، وتباعدت رويدًا وعيناي تتبعانها. حتى خرجتْ من باب المقهى واثقة الخطو، خفيفة

الكتف، ثقيلة الردف.. ماذا تريد مني هذه المرأة الفاتنة، الساحرة الشريرة، الواعدة المتوعدة، المحرك الذي لا يتحرك؟ ماذا تريد مني؟ ولا حاجة.. وماذا لو كانت تريد مني ما تريد؟ ولا حاجة.. لو جاءتْ غدًا فلم تجدني، أو تأخرتُ عن عمدٍ مع عدم انشغالي، فماذا ستفعل هي في هذه الحالة؟ ولا حاجة..

ولو كنت قبل ثلاثين سنةً قد استسلمتُ لرغبة أبي في إبقائي بالبلدة للعمل معه في محل البقالة والزواج من ابنة أخته اليتيمة «زينة»، ولم أفر إلى العاصمة مع بقية الذين هاجروا إليها، فهل كنت سأحقق المجد الذي وصلت إليه هنا؟ وما الذي كنت سأحصل عليه إذا بقيت بالبلدة؟ ولا حاجة.. أي مجد هذا الذي أتوهمه، فمن صحفيٍّ مغمورٍ إلى تلفزيونيٍّ مشهور، إلى ثائرٍ يتهافت عليه الجمهور، إلى خامد تحوطه علامات الاستفهام ولا أحد يحب التحدث معه أو إليه.. ما معنى هذا؟ ولا حاجة.

إذا بقيت اليوم بالمقهى حتى المساء، فماذا سيحدث؟ ولا حاجة.. وإذا عدتُ للبيت ثم عدتُ من البيت، فما الفرق؟ ولا حاجة.. ولو خرجت الآن وصرخت وسط الناس، فما الذي سيحدثه فيهم صراخي؟ ولا حاجة.. وإذا حافظت على صمتي الاضطراري، ولا حاجة.. وإذا متُّ الليلة أثناء نومي، ولا حاجة.. وإذا قامت الآن القيامة، ولا حاجة.

◇ حوافُّ اللحظة ◇

قد تكون تلك هي زيارتي الأخيرة لمصر، وقد لا تكون، لستُ متأكِّدًا.. فالتأكد مفقود مع رجلٍ تخطى الثمانين من عمره، منذ بضعة أشهر. لا والله. التأكد بصرف النظر عن عدد سنوَات العمر، مفقود، لكننا لا نعي ذلك إلا عند اقترَاب النهايات التي لا موعد لها، بعدما كنا نظن في زمن البدايات التي لا ضامن لامتدادها، أننا نملك الوقت.

لا أحد يملك (الوقت) الذي يملكنا كلنا، مهما كان عمرنا. لدينا فقط ذكرياتٌ مرت ولن تعود أبدًا، وتوقعاتٌ لقادمٍ قد لا يأتي أبدًا! وما بين هذه وتلك ليس بأيدينا إلا اللحظة الحاضرة، سواء كانت سريعة المرور أم بطيئة.. واللحظة ذاتها، لا تعرف السرعة أو البطء وإنما نسكب عليها شعورنا بها، فنتخيل عند الترقُّب والتحرُّق والاشتياق إلى شيء، أن اللحظات متكاسلة المرور. وعند النوال والنصر وبلوغ المأمول، تمر اللحظة كلمح بالبصر تاركةً ذكرى لا يعرف معناها غيرنا.. ما عاد عندي اليوم إلا الذكريات، وتحسُّس اللحظات التي تمر تباعًا بلا إسراع أو تباطؤ، بلا تحسر على فائت أو توقع لآتٍ، وبكامل الحرية. فقد صرت حرًّا بحق حين تحررت مني ومن كل الأوهام والآمال.. الآمالُ أوهام والتمنياتُ خيالات، وما حياتنا إلا هذه الأوهام وتلك الخيالات، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

صباح اليوم، ومثلما يحدث كل صباح منذ وصلت إلى هنا قبل ثلاثة أيام مع المرافقين الثلاثة، ارتديتُ دون مساعدة من أحدٍ هذا الجلباب، وخرجت وحدي إلى شرفة الجناح الفندقي لأشهد المنظر الذي لا أملُّ من تكراره، أعني استلقاء النهار على الأرض وارتماء أضواء الأفق الباكر على صفحة النيل المتماوجة بهدوء. لا أسكن في القاهرة إلا بأحد هذين الفندقين، شبرد أو سميراميس، فكلاهما يتيح لي هذه الطلة على النيل عند مجيء الشمس من خلف المبنى، صباحًا، وفي أوان العصر أعود للجلوس بالشرفة لأرى على صفحة الماء انعكاس الشمس المستعدة مثلي للغياب. فإذا غابت، وأنا بعد حاضرٌ في هذه الحياة، ناديت المرافقين الثلاثة كي يصخبوا قليلًا من حولي. بهدوء. حتى يواتيني الحنينُ إلى الذكريات، فأصرفهم وأمرح في المدى المفتوح الذي لا يعرفه سواي، ولا يراه غيري.. وحين ينال مني الإنهاكُ أنام على هونٍ مراتٍ متقطعة بالأرق، فيعتريني شعوري الجاثم بأنني ما عدت أعيش اللحظات، وإنما أتسكع بلكاعة عند حدود

حوافها. فلا أغوص فيها، ولا تغوص فيَّ فأستغرق فيها. وحين يستولي عليَّ السأم، أسرِّي عن نفسي باستدعاء لذائذ الذكريات أو أواسي استسلامي بأن الملل لا مجال للهرب منه، مثلما قال الحكيم «زهير» في معلَّقته قبل ألف وخمسمائة عام: ومَنْ يعش ثمانين حولًا، لا أَبَالكَ يسأمِ.

***

مرَّتْ عليَّ بالشرفة نسمةُ هواءٍ باردة، فأسعدتني وذكرتني فجأة بالمرة الأولى التي أتيت فيها لمصر.. وابتسمت حين انتبهت إلى أن الذي لا يعرفني جيدًا، لن يصدقني إذا قلت له إن رحلتي الأولى من الكويت إلى مصر استغرقت مني قرابة شهر، وبطريقٍ بريٍّ. كان ذلك في العام الأول بعد الخمسين وتسعمائة وألف، وكنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري.. جئت لأحقق حلم أبي الذي صحبني هاتيك المرة، آملًا أن أدرس بالجامعة حتى التخرج والحصول على أعلى شهادة من كلية دار العلوم.. ولأحقق حلمي في الفرار من رحلات صيد اللؤلؤ الشاقة القاسية، والعيش في بلد خضراء الأرض، وغنية!

كان أبي رجلًا متميزًا. لم يتعلم بمدرسة، لكنه كان يقرأ الصحف التي تصلنا أحيانًا مع القوافل من جنوب العراق، ويوقِّر العلم والعلماء. كان «نوخذة»، ويعمل في البحر وتربطه صلة صداقة بالشيخ أحمد الجابر، ومعدودًا بين أقرانه من جملة المرموقين. وله غيري من الأولاد خمسة، ومن البنات والزوجات اثنتان، ومن العمر أربعون.. أيامها، أمي توسلت إليه ألا يبعدني عنها فلم يراع التياعها، ودفعها عني بقوله إنها ستعرف قيمة ما يفعله، حين أعود إليها ومعي الشهادة الجامعية وأصير من جملة العلماء الكبار. هكذا قال لها، وهكذا كان يعتقد. لم أعد لدياري خلال سنوات دراستي، لأن السنة الجامعية كانت تنتهي عند ابتداء الصيف، وتبتدئ عند نهايته، والصيف في مصر بديع وفي الكويت مريع. حتى في غير الأوقات التي يملأ فيها «الطوز» الأجواء، وينفث ريح جهنم المفعمة بالغبار.. وفي منتصف الخمسينيات عندما عدت للبيت بعد غياب السنوات الأربع، كانت أمي قد توفيت. عليها رحمة الله.

يوم وصولنا القاهرة أول مرة أسكنني أبي غرفةً فقيرةً بفندقٍ عتيقٍ، عند ملتقى الشارعين اللذين يؤدي أحدهما إلى جامع الحسين، والآخر إلى مسجد السيدة. قضيت هناك أجمل سنوات عمري، مع أنني كنت فقيرًا، ولكن ليس إلى حد الفاقة. فأبي كان

يحرص على إيصال نفقات معيشتي بانتظام شبه تام، وكان يعدني بالصبر، لأن الخير قادم وقد بدأت بشائره في الظهور. كان أبيٍ من القلة الواعية بأن النفط الذي ظهر بعد مولدي بشهور في حقل «بحرة» ثم اندفق بعد عامين من حقل «برقان» سوف يجعلنا بعد سنوات قليلة أثرياء. كان ـ رحمه الله ـ ثاقب النظر. يوم ودَّعني في القاهرة، جلس قبالتي كأنه يجالس رجلًا وأوصاني بثلاث: الاجتهاد في الدراسة بقدر المستطاع، والابتعاد تمامًا عن لعنتي الخمر والزنا، والمحافظة على الصلوات.. فالتزمتُ، وكنت في سرِّي أحمد الله على أن أبي لم يوصني بعدم الاستمناء، وإلا كنت قد أطعته فانفجرت. الشباب شعلة من جهنم.

حين رجعت بعد الأعوام الأربعة إلى موطني وجدته قد تغير كثيرًا، بعد الثبات الذي دام عدة قرون. لم أشعر بالثراء، لكنني رأيت بداياته المبشرة.. وبعد حينٍ شدَّني الحنينُ إلى مصر، ووافق أبي، فعدتُ في منتصف الستينيات إلى القاهرة من أجل الحصول على الدكتوراه. أيامها ركبت الطائرة لأول مرة. عشت سنواتٍ أجمل من السنوات الأجمل التي سبقتها، وسكنت في شقة لطيفة بحيٍّ قاهريٍّ يسمى «العباسية» واستمتعت بكل ما كان بمصر آنذاك: حلم الوحدة العربية، حفلات أم كلثوم، جلسات محمود شاكر، سهرات المقاهي القريبة من ساحة الحسين.. صفية رشيد.

صفية. سبحان الله الذي أبدع هذه الأنثى، الاستثناء، وسكب عليها من بديع الحسن ما لم يُرَ مثله. ولن يُرى. حين وقع الخلاف الوحيد بيني وبين أبي، بسببها، سألني أخي «منصور» عن شكلها، مستنكرا حالي في الوله والهيام بها. قلت له إنها لا تشبه أحدًا ولا يشبهها أحد، ولا يمكن وصف جمالها. قال: شلون يعني؟ قلت: عيناها بحارٌ وسماوات وأنهار وأشجار وزهور.. قاطعني قائلًا بسخرية: بيكفي، تَرَى إنت عشقت الكون كله!

***

رأيتُ «صفية» أول مرة في القاعة المفتوحة بالمكتبة المركزية لجامعة القاهرة، وكان معي لحظتها على الطاولة الدكناء المخصصة للقُرَّاء، الجزء الثاني من كتاب جارالله الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل.. حين دخلت «صفية» القاعة بوجهها الصبوح، أشرقتْ شموس وأطلَّتْ أقمار، فاختلط بداخلي الليل والنهار. رأسي ذاب، وارتجف قلبي، فغابت عن عيني سطور الكتاب.. انتبهت هي لذهولي فابتسمت، فلم أستطع النوم في تلك الليلة. وفي الصباح التالي جلستُ كما كنتُ بالأمس مترقبًا مجيئها، علَّها تمنحني

ابتسامةً أخرى تعيدني للحياة. لم تأتِ. ولم أرها ثانية إلا بعد ثلاثة أيامٍ عجاف، كانت لياليها أيضًا عجفاوات، وليس فيها إلا الحيرةُ والسؤالُ الذي اتنهَّدُ به وقد صار في جوف الليل كالتسبيح: إيش أسوي؟

صباح يوم الأربعاء العاشر من شهر مارس سنة ١٩٦٦ جاءت «صفية» إلى المبنى الأنيق، وسألتْ أمين المكتبة عن كتاب فأشار إليَّ. غمرني ارتباكٌ زاد مع اقترابها مني، وسؤالي عما إذا كان بإمكانها أن تأخذ الجزء الأول من الكتاب المسجى أمامي منذ أيام بلا حراك كالموتى. هي لم تقل ذلك وإنما نطقت، برفق النايات، قائلة: ممكن آخد الجزء ده ساعة واحدة بس؟

ـ جزء..؟

ـ أيوه، الجزء الأول أنقل منه المقدمة بس. أصل الدكتور «أبوريدة» طالب مننا بحث عن شخصية معتزلية، وأنا اخترت الزمخشري.

ـ وليش تختارين الزمخشري؟

ـ إيه ده، إنت مش مصري! مع أن شكلك مصري خالص.

ـ إنتِ طالبة في قسم فلسفة، صح؟

ـ صح. وإنت، زميلنا ولا أستاذ؟

ـ لأ، أنا بعمل دكتوراه. ومن الكويت.

ـ أيوه، عارفاها. بيقولوا إنكم ناس كويسين.

ـ شكرًا، اتفضَّلي الكتاب..

على مقربة مني جلستْ حتى نسختْ مقدمة الكتاب، ثم أعادت إليَّ المجلد، فعاودتُ سؤالها وقد صرتُ فجأةً جريئًا، عن سبب اختيارها الزمخشري موضوعًا للبحث. قالت إن معظم زملائها اختاروا المعتزلة الأوائل من أمثال «عمرو بن عبيد» و«واصل بن عطاء» وبعضهم اختار المشهورين جدًّا مثل «الجاحظ» و«القاضي عبد الجبار». وأرادت هي أن تتميز عنهم، فاختارت «الزمخشري» الذي سهوا جميعا عنه.. عجيب! زملائي (الدرعميون) كانوا أيامها يروِّجون فيما بينهم، خرافةً تقول إنه من المستحيل أن يجتمع الجمال والذكاء في امرأة، وهذا من رحمة الله بالرجال.. مساكين زملائي الدرعميون! ومن رحمة الله بهم، أنهم لم يعرفوا «صفية» وإلا لكانت عقولهم قد طاشت، وطاحت في

غيابة جب الذهول.

في ذاك اليوم الذي لا ينسى، سألتني عن موضوع رسالتي للدكتوراه فأخبرتها بأنه: ظاهرة الاحتراس في القرآن. فثار شغفها واستفهمتْ مني عما قلته، فشرحتُ وأطلتُ وهي تنصتْ باهتمام حتى انتهيتُ، فقالتْ: موضوع جميل جدًّا، وتستحق عليه مكافأة، تعالَ أعزمك على فنجان قهوة.. لم أكن أشرب القهوة، لكني ذهبت معها وشربت ونهلت من عيون حضورها الآسر، الساحر.. إيييه يا صفية.

معها، عشت أشهرًا ثلاثة في الجنة. فرأيت من صاحبتها ما لم تره عين، ولا خطر على قلب بشر: فتاة فاتنة، تفيض أنوثة، ولا تخجل من كونها أنثى. معتزة جدًّا بذاتها، وذكائها، ومفرطة بإسراف في الرقة والحنو. كل ما فيها، بلا استثناء، مليحٌ بل فادح الحسن وباهر الجمال. لا تضع من ألوان الزينة، إلا خطًّا من الكُحل الأسود البراق، وتمدُّ منه خطًّا كنصل السهم على حواف اللحاظ. فتشوي قلبي وتقتله اشتياقًا وشغفًا وتشوُّفًا. هي كأسُ الراح المسكر والمستراح، هي الليونةُ المنسابة الرقراقة الحانية وسموُّ السحاب، تغريد الطيور والغصنُ المتمايل مَع النسمات.. صفية.. الخدرُ يسري في أصابع قدمي والساقين، بعد ستين سنة، ورأسي يطنُّ بأعلاه نحلٌ وبأنحائه ترفُّ الفراشات بأجنحتها.. الله.. الله..

كأنني غفوتُ برهةً ثم انتبهتُ.. صخبُ كورنيش النيل يتعالى مع تزايد العابرين وكثرة القوارب التي تمرح في عرض النهر لاهيةً، وصادحةً السمَّاعات بالأغنيات القديمة التي تثير الشجو، والجديدة التي صاروا يسمونها هنا المهرجانات. اسمٌ عجيب، المصريون يصعب فهمهم بالكامل ولا يمكن أن تخلو أحوالهم من مدهشات. حتى بعدما جعلهم حكامهم فقراء. وهم يميلون بطبعهم للمرح وابتكار النكات المهذبة والفاحشة، ومتسامحون، ونساؤهم الساحرات خطيرات. صفية كانت ساحرةً وخطيرة، واثقةً ومثيرة، خفيفةَ الظل وفيرةَ الظرف ميالةً للمرح. ما كان شيء يخالفني فيها ويخيفني منها، إلا أمرٌ وحيد. هو كونها للأسف ملحدة، ترى أن الأديان اختراعٌ إنساني، في مرحلة تجاوزتها البشرية منذ زمن.. ما كنت أخوض معها في ذلك، لثقتي التامة في أنها يومًا ستهتدي وتثوب إلى الصواب. لأن الله الذي أبدعها على هذا النحو النادر، لن يبخل عليها بالكمال وأنوار الهداية.

ظهيرة اليوم المشهود الذي أدَّت فيه «صفية» صباحًا آخر امتحان جامعي، وبدا أنها

أنهت دراستها وستحصل على شهادتها بعد أسابيع. وكانت قد استكملت المسار إلى نهايات الحُسن الأنثوي الفتاك، فصرت أخشى أن تؤول جناتها وفواكه أرضها التي آن قطافها، لغيري. قلت لها إنني أحبها، وأحب أن أعيش معها بقية العمر. فقالت إنها تحبني، لكنها لن تستطيع العيش إلا بمصر، وأردفت أن لديها حلمًا يلح عليها بقوة: أن تعيش بقية حياتها في مدينة مصرية صغيرة، اسمها «الإسماعيلية» هي البلدة التي نشأت فيها أمها! قلتُ إن حلمها ليس مستحيلًا.. وسافرتُ إلى الكويت كي أستأذن أبي في الزواج من صفية، وأخطأت حين صرَّحت له باحتمال أن أعيش معها بمصر. رفض. تحايلتُ بكل الوسائل لإقناعه ففشلتُ، وقمع كل محاولاتي لأنه كان يعتقد أنها حالةٌ عاطفيةٌ عابرة، وأن بلدي يحتاجني، وأنه لا مقدرة لي على التعامل مع امرأة مصرية.. سامحك الله يا أبي! متى عرفت أنت المصريات، فحكمت بذلك!

***

تاهتْ مني دروبُ الحياة، أو تهتُ فيها. وفقدت صفية. قيل لي إنها انتظرتني شهورًا حتى يئست من عودتي، فاتخذت سبيلها في بحر الحياة سربًا. وقيل إنها هاجرت لاستكمال الدراسة في أوروبا، ولم تتزوج. وقيل تزوجت من مهندس مصري محظوظ، وتعيش في بيتٍ جميلٍ يطل على قناة السويس.. الأقاويلُ تضاربتْ وهزمتني. أبي هزمني. ومصر انهزمتْ في العام التالي من اليهود المستهان بهم، وأهينتْ.. وأنا هنتُ من بعد فقداني صفية. فقد تناوشتني شواغل الحياة بالكويت بعد عودتي إليها حاملًا درجة الدكتوراه، وتدفقت في نهر الحياة مياهٌ كثيرةٌ أغرقتني في التنقل بين المناصب الجامعية والترقي في المقامات، وفي فترةٍ كثرت الدعوات التشريفية من الديوان الأميري، للمشاركة في الأنشطة العامة والفعاليات، فكانت تلك مقدمة لاختياري وزيرًا.

في فترة الوزارة فقدت شعوري العميق بذاتي، وانهمكت في صخب الحياة حتى نسيت معنى الحياة. ونسيت نفسي. لكنني لم أنسَ «صفية» يومًا ولا بعض يوم، كنت أراها في مياه الخليج الساكنة وفي بهرجة المحال والأسواق، في الأوراق التي أقوم بتوقيعها وفي الرحلات إلى أنحاء العالم، في زوجتي المسكينة التي أنجبت لي الأولاد الذين أنجبوا لي الأحفاد، وفي الصحو والنوم.. دومًا، كانت «صفية» معي.. لأنها لم تكن معي.. أنا لم أكن معي، لأنني ما تجرَّأتُ، فما غُصتُ في اللحظة الوحيدة الحقيقية في حياتي، وظللت أحوم حولها ولا أجرؤ على اقتحامها.. آه.. ما هذا الدوار.. هل أتماسك حتى أقوم من

هذه الشرفة، وأهرب من حر الظهيرة القاهرية إلى هواء الغرفة المكيف.. ماذا حل بي! لا بد لي من القيام إلى التليفون فأستدعي المرافقين من الغرفة المجاورة للجناح الفندقي. فيهم اثنان من الأطباء، وفي صدري اختناق.. أين أنا؟ لا أستطيع القيام من مكاني، وما عاد بإمكاني استدعاء أحد، وما عدت أرى ما حولي.. ما هذه الغيوم؟ هل هذه غيبوبة، كتلك التي كانت العام الماضي.. لا.. هذه ليست غيبوبة، هذا غياب.. غيابٌ تام.

◊ أمنيات أماني ◊

صحوتُ هذا الصباح مبكرةً عن المعتاد، كعادتي في أيام السفر، وفارقت فراشي ممتلئة بالحماس وباسمة. فحقيبتي الأنيقة معدة منذ عصر أمس، وفوقها جواز سفري وبرنامج المؤتمر، وإلى جوارها يرتمي بدلال ما سوف ألبسه أثناء السفر.. ما معنى قولهم إن السفر قطعة من العذاب! ثم يعارضون ذلك بقولهم إن في السفر سبع فوائد! هذا كله كلام عام، مجرد. كل رحلة لها طابع خاص ووصف مخصوص، وسفرتي اليوم لها المذاق الأعذب وفيها الفائدة الأقرب إلى قلبي، وهي مقابلة «ناظم» وإتمام ما لم يتم من قبل.

تعجلتُ في مفارقة سريري الحنون، مع أنه لا داعي للعجلة، فلن تقلع طائرتي إلى بيروت إلا في تمام الواحدة ظهرًا. يعني سأكون في المطار حوالي الحادية عشرة، يعني لن أحتاج النزول من بيتي الجديد الجميل هذا، قبل العاشرة. فالطريق من «المحرق» إلى المطار ليس طويلًا، وشارع «خليفة الكبير» الذاهب إلى هناك يكون غير مزدحم في هذا الوقت.. كل شيء جميل، ومبشّر.

أعددتُ على مهل قهوتي، وخلال ذلك غسلتُ الطبقين النائمين منذ أمس في حوض المطبخ، وأكلتُ قطعة من علبة (الحلوى العُمانية) تأكيدًا لخرافتي الخفية الطريفة: الحلو في الصباح يستدعي الحلاوة طيلة اليوم.. هذه واحدة من الأساطير التي صنعتها لنفسي وآمنت بها من زمن طفولتي الأولى وفترة الفوران المسمى: ميعة الصبا. اسمٌ لطيف. أيام «ميعة صباي» كانت حافلة بكل المتفرِّق والمتضارب من المشاعر، فيها الفرح والفزع ولذة التواري والميل إلى إبراز مظاهر الأنوثة، والخوف من بطش الرجال، ولذة التوق الانفرادي في الأمسيات الساكنة إلى حضن رجل، وفيها الاستمتاع السري في سماوات الخيال. هي ضفيرة عجيبة مجدول فيها كل ما هو أنا، وهو كثيرٌ، وحقيقي جدًّا.. ومن أيامها حافظت على عادتي السرية، حتى في أيام المدرسة الابتدائية كنتُ ألتزم يوميًّا بساعة الخيال والأحلام المستحيلة، فأصحو قبيل الفجر وأتسلل إلى المطبخ فأبحث عن المتاح من حلو المذاق، فآخذ منه ملعقة أو قطعة، أعود إلى السرير وهي بعدُ في فمي وأتغطى مثلما كنت، وأكشف لنفسي ما يوافقني من صنوف الخيال وفنون الأحلام، فأبقى فيه حتى يأتي موعد استيقاظي لهذا اليوم أو ذاك، فأصحو وأنا الصاحية. أنا الحالمة المحقِّقة بالخيال كل ما أتمناه، أنا الهائمة منذ ساعة أو أزيد في آفاق

لن يعرفها سواي، أنا الموجودة بالكامل في تلك اللحظة الفريدة.

مع مرور الأيام تطورت طريقتي في الهروب من ضيق الواقع إلى رحابة ذاتي، فكنت أحتفظ بالحلوى قرب سريري كيلا أحتاج التسلل منه، وكنت أتجرأ شيئًا فشيئًا وأزداد جسارةً فأنتصر على واقعي.. حين زجر أبي غضبًا مما ظنه من ملابسي مكشوفًا، فصاح فيَّ: تحشّمي يا أماني! لم أكن أفهم سبب غضبه، ولا أدري ما معنى الحشمة المقصودة. فلما أفهمتني أمي ورسمت برفق أمام عقلي ملامح المأساة. سكنتُ، وراعيتُ ما يريده أبي طيلة الوقت، إلا في ساعة الأحلام المستحيلة التي أجعلها بعقلي المتواري، ممكنة. فأراني فجرًا تحت الغطاء أعيش في بلدٍ لا تخرج فيه الفتيات من بيوتهن إلا عاريات، وليس فيه أحد من الرجال فقط، أطفالٌ أبرياء وفتياتٌ. وكلهم يمرحون بلا أي خوف من أي شيء، ويتعالون بالضحكات في الطرقات المحفوفة بالأشجار المزهرة وألوان الفواكه المبهجة والطيور المغردة.

أيام دراستي الجامعية أحببت أصغر أساتذتي سنًّا، وكان أكثرهم أناقةً وأجملهم شكلًا. كثيراتٌ من زميلاتي كنَّ يتمنين الاقتراب منه، ويختلقن الذرائع للتحدث معه. وفيما بينهن يتأوهن. تركت لهن أوهامهن يتخبطن فيها، وفزت به زوجًا محبًّا وعاشقًا يشتعل اشتياقًا لمزيد من النيران، كلما مسَّه اللهبُ. بقينا معًا عدة أشهر، حافلة باللهو والمرح السريري والسفر إلى الأنحاء الساحرة في العالم، حتى مللت منه وأزحته برفق بعيدًا عن ساعات تحليقي في سماوات ذاتي.. والعجيب أنني بعد فترة من انفصالنا، بناءً على رغبتي، رغبت فيه مجدَّدًا فاستدعيته لثلاثة أيامٍ متواليةٍ حافلةٍ بالملذات، وبعدها رغبت عنه فأطلقتُ سراحه.

وحين وقعتِ الحادثةُ المروعة على جسر الملك فهد، وتوفي أبي وأمي وهما في الطريق إلى الحج، بالسيارة الجديدة التي صارت مهشمةً فكأنها ورقةٌ قديمة تكرمشت. صُدمتُ، ولم يستطع عقلي العمل لعدة أسابيع حتى أشرفتُ على الهلاك، ثم عادت العافية إليَّ فصرتُ أجلس معهما كل يوم في الجزيرة التي اتخذاها مسكنًا لهما بعد الحادثة. ورويدًا، تعرفتُ معهما إلى أنحاء هذه الجزيرة التي تشبهها الجنات، وتجوَّلت معهما على حواف ساحلها الساحرة ألوانه بالتناغم بين درجات الزرقة والاخضرار. وفي بحرها سبحت مع أمي، وأبي جالس باسترخاءٍ فوق الرمال ينظر إلينا نظرة باسمة. وبعد عدة مرات من تحقيق المستحيلات سرًّا، أيقنتُ بأن أبي وأمي لم يذهبا بعيدًا، وما الموت الذي يظنه

الناس افتراقًا أبديًا إلا غلالة يتوارى خلفها الراحلون فيحتجبون بها عنا، مع أنهم بالقرب منا.. أيامها، أخطأتُ وأخبرتُ أخي «قاسم» بيقيني هذا، فوافقني وقال مؤكِّدًا كلامي، وهو في واقع الأمر يطيح به وينفيه، إنهما ماتا في حادثة، يعني شهداء. والشهداء ليسوا أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون. مسكين أخي «قاسم» فعقله قاصر عن إدراك ما أخبرته به، ربما لقصور قوى المخيلة عنده بسبب اهتماماته السياسية.. مسكين.. كان أبي يرجوه بل يتوسَّل إليه كي يبتعد عن جماعات المعارضة، وكانت أمي تبكي، لكنه استمر فيما هو غارق فيه. وبلغ من البلاهة أن ظن التغيير ممكنًا والإصلاح محتمل الحدوث في غيبة الخيال الخلاق. مسكين «قاسم». انتهى وجوده العمومي بعد سنة من احتجاب أبي وأمي خلف غلالة الغياب، وصار اسمه في كشوف الاختفاءات القسرية البائسة. فلا هو حيٌّ فيُرجى ولا ميتٌ فيُنعى. وقد عجزتُ عن استدعائه إلى ساعات خيالي، الأقوى وقعًا من الواقع، بسبب تشوُّش ذهني في أعقاب اختفائه وإصرار عمي «جعفر» على عدم البقاء بالبيت وحدي، ودعوته بإلحاح إلى انتقالي للعيش مع أسرته. كانت دعوة خبيثة، نجوت منها حين سألت أبي ونحن جالسان على شاطئ الجزيرة، وأمي بجوارنا تسمع، فأخبرني أبي بأن عمي طامع في ميراثي أنا وأخي الغائب الذي غالبًا لن يعود، ونصحني بالاستعانة بصديقه القديم «علي المولاني».

أعانني صديق أبي في تصفية تجارته وفي تأجير الدكاكين التي ورثتها، وهداني تفكيري إلى الابتعاد عن عمي «جعفر» وعن عالمي السابق، فتركت منطقة «الرفاع» وسكنت بهذه الشقة اللطيفة بأطراف «المحرق» فعاودتني القدرة على النفاذ من حُجُب الواقع بقوة الخيال، حتى تناغمت بداخلي حقائق الخيال ومخادعات الواقع المراوغ الذي يهيمن على عقول البسطاء من الناس.

* * *

بعد انتقالي إلى هذه الشقة بشهرين، زارتني جارتي القديمة «شيخة» التي تعدُّني رفيقة عمرها، أو تزعم ذلك أمامي. ويوم زيارتها بكتْ واشتكتْ بحرقة من ظلم زوجها، فاحتضنتها مواسيةً فتسللتْ لي من عقلها مشاعر لم أستسغها، نصحتها بالصبر فقالت إنه نفد. وأشرتُ إليها بأن تدفن همومها في خدمة طفليها، فردت بأن بيتها فيه خادمتان. ولما وجدتها تحدق ذاهلة نحو صدري المكشوف مرتقاه سألتها عما بها، مندهشةً، فأجابتْ بأنها تعاني من الفراغ.

احترتُ في أمرها وعزفتُ عن مسايرتها فيما لم تفصح عنه، إلا بنظراتٍ لهفى، وأردتُ أن أهدي إليها طريق الخلاص مما تعانيه، فنصحتها بالخيال الخلاق. لم تفهم. أوضحتُ لها أن فيها قوة خاملة، عليها أن تستفيد منها وتحلِّق بها فوق الوقائع المعيشة حتى تكتسب القدرة على العيش في عالم المثال. لم تفهم وتوجست من كلامي. أشفقتُ عليها فبسَّطتُ لها الأمور بأمثلة تفهمها بوعيها المحدود، وشرحت لها أننا أثناء الحلم المنامي لا نشك في واقعية أحلامنا، حتى نصحو فنرى الواقع يختلف عما كنا نراه في الحلم، وندرك أن هذه حالة إدراكية مغايرة. ونظن أثناء الصحو أن ما نراه حقيقي ولا يجب الشك في واقعيته، تمامًا مثلما كنا في الحلم نظن أن ما نراه واقعي جدًّا، وحقيقي تمامًا.. زاغت نظرتها وراحتْ تحدِّق وهي مشدوهة في فنجان قهوتها. سألتها إن كانت تدرك أنها الآن مستيقظة وتنظر بإمعان إلى الفنجان، فأجابت بالإيجاب. سألتها إن كانت واثقة تمامًا مما تقول وترى، فأكدت، فقلت لها إنها الآن تظن أن الفنجان جماد ساكن لن يتحرك بذاته. لكن هذا خداعٌ بصريٌّ ووهمٌ لا يقل خياليةً عما تراه في أحلامها. لأن هذا الفنجان مثل كل ما يحيط بنا في هذه الصالة والغرف المحيطة بها، ليست جمادات ساكنة مثلما نتوهم. وإنما هي موجودات مرئية بمستوى معين، تنقسم إلى جزئيات تنقسم بدورها إلى ذرات تنقسم إلى إلكترونات وبروتونات، بينها جسيمات متناهية الصغر تسمى الواحدة منها «كوارك» وهي طاقة هائجة مفعمة بالحركة، وليست جمادًا ساكنًا، وإذا اصطدمت هذه الكواركات في ذرة، انشطرت، فوقع الانفجار النووي المريع.. ارتدتْ «شيخة» عباءتها متعجلةً وأسدلتْ على رأسها الستر الأسود، واستأذنت في العودة لبيتها لأنها تأخرت والطريق طويل.

لم تأتِ من بعد لزيارتي، ولم تتصل، فاسترحت منها.

***

بعد استقراري هنا بعامين، حصلت على درجة الدكتوراه برسالةٍ نشرتها لاحقًا في كتاب عنوانه «الدور المحوري للبطل التراجيدي عند أرسطو» ولمع على غلافه اسمي الرسمي: الدكتورة أماني صالح آل عصفور. وبعد عام كامل أخبرني الناشر أن كتابي لم يتوزع منه إلا سبع عشرة نسخة، منها خمس نسخ حصلَتْ عليها جهات أمنية ورقابية، مجانًا. وقيل لي، إن ما قاله الناشر كذبٌ وتمويهٌ يريد به التهرُّب من سداد حقوقي.. لم أهتم بهذه الأمور المالية التافهة، لأن غايتي الأولى تمت وتحقَّق حلم أبي أن أصير أستاذة

جامعية، وتكون لي مؤلفات تحمل اسمي واسمه ولقب العائلة.

العام الماضي في مثل هذه الأيام، لبيت الدعوة التي وصلتني شخصيًّا من مؤسسة «الحوار اليورومتوسطي» التابعة للاتحاد الأوروبي. لحضور مؤتمر الكلاسيكيات الذي انعقد في مدينة «فينسيا» المسماة عندنا: البندقية. وشاركت ببحث كان عنوانه: البدايات الساتورية للمسرح الإغريقي حتى عصر إسخيلوس.. ونال بحثي استحسانُ منظمي المؤتمر والمشاركين الذين حضروا الجلسة، ولم ينسربوا من القاعة ويتسرَّبوا إلى الأنحاء الساحرة. كانوا قرابة عشرين مشاركًا، منهم الدكتور «ناظم زعيتر» الذي استمعت في اليوم التالي إلى بحثه عن بلدة جبيل (بيبلوس) في الألف الثالثة قبل الميلاد، ودورها في تأسيس الأبجدية.. حضر جلسته كثيرٌ من المشاركين بالمؤتمر، وبالأحرى معظمهم، لأنه مشهورٌ بين دارسي التاريخ القديم وله مؤلفات معروفة، ووسيم.

بعد إلقائه بحثه بالجلسة الأولى امتدح بحثي الملقى باليوم السابق، فشكرته. ويومها، بعد الغداء الجماعي، اقترح عليَّ أن أذهب معه لزيارة كنيسة «سان ماركو» البديعة، فوافقت من فوري. وأظهرت اقتناعي بما قاله من أن الجلسة المسائية ستكون مملة، لأنها تدور حول أشكال كتابة الحروف اليونانية في القرن الخامس قبل الميلاد. طبعًا ستكون مملة. على الرصيف البحري الفسيح المجاور لمبنى الكنيسة الأثرية، جلسنا في مقهى أنيق، وقبيل الغروب سِرنا متجاورين حتى وصلنا إلى السور القصير المطل على «جسر التنهدات» ثم أخذني إلى مطعم أكلت فيه طبقًا لم أتخيل أنه موجود: مكرونة مغمورة في الحبر الأسود للحبَّار! كان الطعام مستساغًا، لأنه كان معي.

عدنا للفندق بعد انتصاف الليل بقليل، وكان للأسف سوف يسافر إلى لبنان فجرًا، فودعني متحسرًا على فوات الفرصة للبقاء معي وقتًا أطول. قال إن نصف يوم لا يكفي لمعرفتي على النحو الذي يتمناه، لطيف، في الصباح التالي بحثت عنه بين الحاضرين مع علمي أنه سافر، وسِرت وحيدة بعد الغداء إلى حيث كنا بالأمس، وجلست في المقهي ذاته مستحضرة كل ما دار بيننا من حديث، ومستدعية طريقته الراقية في الكلام معي والإنصات لي، ومستغربة من الألفة المفاجئة التي كانت بيننا والوحشة المفرطة التي صرتُ فيها.. وعدت إلى الفندق ثم إلى البحرين، وأنا حزينة لفراقه.

في نصف يوم صرتُ أعرفه، جدًّا، وأفهم مشاعره المضطربة تجاه زوجته اللاهية التي لا تقيم وزنًا إلا للماديات، وتحديدًا للمال. قال إنها تنوي ترك عملها ببيروت للسفر إلى

فرنسا والاستقرار هناك، وبالتالي فالطلاق بينهما واقع لا محالة عما قريب، لكنه يخشى الوحدة والانفراد في بيته الصغير المنعزل بمنطقة «برمَّانة» الجبلية. وقال إنه جاء قبل سنوات إلى «المنامة» فلم يحب المكان والأحوال الجارية والتوتر المذهبي الذي لا يحتمله، وقال إنه على غير عادته طرح تحفظه وهو يتحدث معي، لأنه شعر بأننا التقينا من قبل أن نلتقي، وقال إنه يؤمن بعالم الذر الذي كانت فيه الأرواح قبل خلق الأجساد.. وقال الكثير من الكلام المفعم بالمؤانسة، المليء بالإمتاع.

وخلال السنة تواصلنا بالرسائل والمكالمات، وكنا سعداء كالأطفال حين عرفنا أن المؤتمر السنوي سينعقد هذا العام في بيروت، وأنني مدعوَّة إليه. واكتشفنا أن أمورًا كثيرة تجمع بيننا، كالولع بالقديم، والإيمان بالإنسان، والثقة في العقل والخيال الخلاق.. وكان من الطريف أننا اكتشفنا اتفاقنا في المذهب، مع أننا لا نعتد أصلًا بالمذاهب والطائفية.

***

الساعة تعدَّتْ العاشرة بدقائق، ولا بد أن أسرع بارتداء ملابسي والذهاب إلى المطار. وبعد ساعات ثلاث سأجده ينتظرني في مطار بيروت، وسيذهب بي إلى الفندق، ثم نسير الهوينا متجاورين في شارع الحمراء، الذي أتوق إلى رؤيته من كثرة ما سمعته عنه وعن محلاته الأنيقة والبهجة المبثوثة بين جنباته.. ثم نذهب كما وعدني، إلى الرصيف البحري في «الروشة» فنجلس قبالة الصخرة الشهيرة حتى الفجر. لن تفلت منا دقيقة، وسنكون دومًا معًا: في المؤتمر وجلساته، ورحلاته الترفيهية.. في الصباح، وفي الأمسيات التي أعد لنا فيها برنامجًا حافلًا، لنا وحدنا.. في الواقع المعيش، وفي خيالي الخلاق.

◇ أقدارُ القُدور والقوارير ◇

لم يكن توديع الصحفي اللبناني «نزيه فقيه» لزوجته الحسناء «لارا قاسم» في مطار بيروت، حارًّا، مع أنها ستغيب عنه فترة لن تقل عن شهرين. وقد تزيد. ولولا حقائبها الثلاث الكبيرات، لما كان قد اكترث بتوصيلها إلى المطار وتعطيل أعماله الصباحية، ولكانا اكتفيا بوداعٍ سريعٍ لطيف في شقتهما، يناسب شخصين ناجحين في عملهما، تزوجا قبل سبع سنوات زواجًا مستقرًّا. ليس فيه ذرية. فهو مكتفٍ بابنته من زيجته الأولى التي لم تدم إلا عامين، وهي مكتفية بإثبات ذاتها في عملها وفي المحيط الاجتماعي المرسوم حولهما، ولا تريد تعقيد الحياة بالإنجاب الجالب للشواغل الواجب تفاديها. «نزيه» أقنعها بذلك فاقتنعت.

خلال ساعة الطيران من بيروت إلى القاهرة، دارت أفكار كثيرة وسريعة برأس «لارا»، كان منها: لا بد من بذل مزيد من الجهد في العمل خلال الفترة المقبلة، حتى ترسخ قدميها في وظيفتها الجديدة.. لن يصدق الذين سيعرفونها في القاهرة، أنها تخطت من عمرها السادسة والثلاثين.. انتقالها من الوظيفة الفرعية بالمكتب «الفرعي» ببيروت، إلى خبيرة تحليل برمجيات بالقاهرة، يعد في حدِّ ذاته ترقيةً وارتقاءً وظيفيًّا تُحسد عليه.. عملها بالمكتب «الإقليمي» التابع لمنظمة الأمم المتحدة، سيكون خطوة كبيرة إلى الأمام.. ربما يؤدي نجاحها في القاهرة إلى انتقالها بعد عامين أو ثلاثة إلى المكتب «الرئيسي» في باريس، وربما يتحقق الحلم الأقصى فتجد نفسها بعد أعوام تالية في «نيويورك» بمنصب مرموق في إدارة المنظمة.. الطموح اللامحدود مشروع.. لا داعي للقلق من الانتقال للقاهرة، ولن تسمح لأي مزعجات بتنغيص حياتها خلال فترة بقائها المؤقت هناك.

***

هاهو مطار القاهرة باتساعه وازدحامه وقذارة بعض جنباته، وكذلك المدينة، لكنها لم تكترث. لا شأن للوافد إلا بالفوائد. فور وصولها الفندق أسرعت بفتح الحقيبة الصغيرة، ثم الاستحمام، ثم الذهاب إلى الكوافير، ثم العودة إلى الغرفة لترتاح. وفي الغد، بدأت أول أيام عملها وهي في قمة إشراقها وزينتها اللافتة لأنظار الزميلات والزملاء، وأناقتها المبهرة، وسارت بيسر كل الأمور. وبعد أربعة أيام انتقلت إلى الشقة

المستأجرة بمنطقة «الدقي» القريبة من مقر عملها، ومن قلب المدينة، ومن شكل الحي البيروتي الذي سكنت فيه منذ زواجها. وأمضت عطلة نهاية الأسبوع في تهيئة المكان، بمساعدة «مروة» زميلتها التي صارت صديقتها منذ يومها الأول.. «مروة» هي سكرتيرة مدير المكتب الإقليمي، وهي تصغرها في العمر بعامين، وفي درجة التحضر بأعوامٍ وأعوام، ومع ذلك فهي مرحة ومتصالحة مع ذاتها.

بعد عشرة أسابيع من الاستقرار المؤقت والصداقة التي تعمقت بسرعة مع مروة، دعتها «لارا» إلى أمسية خاصة هادئة في العطلة الأسبوعية، مشيرة إليها بأنها تريد استشارتها في أمر. كانت «مروة» تتوقع هذا الأمر. امتدت الجلسة بينهما حتى ساعة متأخرة من الليل، ولولا سفر «مروة» في الصباح التالي لزيارة أسرتها ورفيقة عمرها «عبير» في بني سويف، لكانت قد بقيت في شقة «لارا» ونامت عندها تلك الليلة الرائقة الأنيقة. كانت «مروة» قد وصلت في حدود الساعة الثامنة وهي ترتدي أفضل ما لديها، فوجدت «لارا» ترتدي أفضل ما لديها من الملابس المنزلية الفاخرة، الكاسية العارية، ووجدت الشقة قد صارت أجمل مع أضواء الأركان الخافتة أو الموسيقى الهامسة وعبق البخور.. وللوهلة الأولى، راودت «مروة» أطياف من الشكوك حول غرض «لارا» من وراء هذه الجلسة الرومانسية، وخصوصًا حين سألتها: بِدِّك أوزو؟

ـ مش فاهمة، قصدك إيه؟

ـ عَرَقي.. ولا أجيب لك سكوتش؟ وعندي كمان نبيذ مصري، سباركي، طعمه طيب كتير. إنتِ بتشربي، صح؟

ـ لأ. يعني مش دايمًا. ولما أكون لوحدي في البيت، بس!

ـ كاسة واحدة، ما فيها مشكلة.

امتدت الجلسة ناعمة، ولم يكن فيها ما يقلق «مروة» من ريبة النساء من النساء، فلما تبدَّد حذرُ البدايات، جرى بينهما الكلام مرتاحًا كأنه الغزلان إذ تمرح في سهول خضراء آمنة.. قرب انتصاف الليلة، وبعد العشاء الشهي والكحول البوّاح، جاء وقت الإفصاح والاستئناس المسمى استشارة، وحكت «لارا» لصاحبتها عن حيرتها تجاه زميلهما في العمل «شريف وافي» والإعجاب المتبادل بينهما.

كانت «مروة» تتوقع ما سمعته، بسبب ما لاحظته في الأسبوعين الأخيرين، وانتبهت إليه الأخريات. لكنها لم تدرِ بما تجاوب به، وأغرقتها خواطرها لحظات: عجيب.

«شريف» كان هدفًا لكثيرات. وهي كانت العام الماضي هدفًا له، غير أنها لم تسمح لنيرانه بأن تحرقها، لأنها تأكدت من أنه لاهٍ، وليست لديه النية للزواج. اللهو لذيذ، لكن الزواج كان عندها هو الأهم. أخرجتها «لارا» من الغرق في بحر الخواطر حين قالت بنبرةٍ تائهةٍ مسكينةٍ تطلب النصيحة لتبرر الفضيحة:

ـ أنا عارفة إنو عينه مايلة، ونسوانجي، بس الصراحة عاجبني، وبيقول إنو معجب فيني كتير. وأنا هون وحيدة.

ـ حصل حاجة بينكم؟

ـ لأ. هو دعيني بكرة ع العشا في شي مكان، ويمكن نروح بعدها ع بيته. بس محتارة.

ـ وإيه بقى اللي محيرك؟

ـ يا مروة، أنا مَرَة مجَّوزة. أنا بعرف إن «نزيه» أكيد عمْ بيخوني.. لكن.. عمومًا بكره بشوف يمكن أطلع معه، ويمكن لأ.

ـ أيوه، ههه. الليلة خمر وغدًا أمر.

في الواحدة بعد منتصف الليل استأذنت «مروة» وانصرفت، فودعتها «لارا» بحضن حار بعد اتفاق على اللقاء القادم.. كانت فيروز تغني بصوت خفيض «أنا عندي حنين ما بعرف لمين» وكانت نسمات الليل باردة، وكان الطريق القصير من شقة «لارا» إلى السكن طويلًا. وكانت أجواء القلب عاصفة.

في الصباح، أدركت «مروة» القطار المسافر بها من القاهرة إلى «بني سويف» قبل دقائق قليلة من قيامه. ما كان من عادتها أن تتأخر هكذا. في طريقها إلى محطة القطار بأكثر ملابسها احتشامًا، سترت شعرها الذي كان مكشوفًا منذ شهر، بالستر المسمى حجابًا. وفي مقعدها بالقطار اطمأنت حين لم تجد أحدًا يعرفها، ولم تلتفت إلى «المعجباني» الجالس بالكرسي المجاور، ولم ترد على مجاملته لها عندما صدمها مسافرٌ جاموسيُّ الهيئة والطباع، دون قصد، فقال له المعجباني: يا أخي رفقًا بالقوارير.. ثم نظر إليها بالابتسامة الصفراء، التي تعرف معناها النساء.

قوارير! متى تكون المرأة عند الرجل قارورة؟ إذا شفّت ورقّت فصارت كالزجاج الهش؟ لا بأس، ستكون النساء قوارير مادام الرجال يريدون ذلك. ولكن كيف، ومن تلك المهووسة التي تستأمن اليوم، فتشف وترق! وماذا سيكون مصيرها القاروري؟

أَوَليس الأنسب للنساء أن يصرن كالقدور، أو يصبحن مع الرجال كالفخار القادر على البقاء في النار، لإنضاج الوجبات المشتهاة؟ فالقدور مستحصفة، ومعتمة، ورخيصة الثمن. وهي مثل القوارير قابلة للكسر عند الحاجة إلى التحطيم، وعند الرغبة في إفناء القديم لإبقاء الجديد، وعند دهس الجاموس الهائج في الظلام. لا. الأنسب للنساء والأجدى من هذا وذاك، أن يصرن أحجارًا تتدحرج حيثما يريد الذكور وتقضي الأمور.. أنا حجر، محجور عليه! لا، لن أبالغ في تصوير المأساة والانغماس في الكآبة. أنا حرة ومستقلة والآن مسافرة وحدي، وبالأمس كنت سهرانة بشقة «لارا» لوقت متأخر، وبعد غد سأعود إلى عملي، الذي أساعد أسرتي بجزء من راتبه الشهري. لست حجرًا، ولا قدرًا، ولا قارورة. فهذه نعوت النساء عند الرجال، وأنا لا رجل عندي ولا زوج.. أنا نعجة لم تجد الخروف، لأنها ابتعدت عن القطيع.

جاء «الكمساري» فشطب بقلمه على تذكرة «مروة» وكان كريمًا، فلم ينظر إليها باحتقار يليق بامرأة تسافر منفردة وتجلس بجوار رجل لا تعرفه. وهو ما يعد عند بعضهم، دليلًا على اقتراب قيام القيامة من بعد طول الجلوس والمكوث في المعاصي، ما ظهر منها وما استتر. ارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

القطار انتظمت اهتزازاته وسكن المسافرون في مقاعدهم واستجلبوا إليهم النوم، فظن ذلك المسافر المجاور لمروة أن الفرصة سنحت للتعارف، لكنها كانت شاردة عنه وبعيدة عن مرمى نيرانه الصديقة. تلك عادتها أثناء رحلة سفرها الشهرية هذه، عند الذهاب إلى «بني سويف» تشغلها وهاد الذكريات، وعند الإياب إلى القاهرة تحلق في سماء الأمنيات.

ذكريات «مروة» كلها، بسيطة مثلها، وليس فيها أكثر من بنتٍ تنتمي لأسرة فقيرة، جاهدتْ واجتهدت حتى حصلت على ليسانس الآداب من قسم اللغة الإنجليزية، وبعد أربعة أعوام من البحث وجدت هذه الوظيفة كسكرتيرة بالمكتب الإقليمي. بدون واسطة. وبعد عام من عملها بالقاهرة، تقدم لخطبتها ابن جارتهم القديمة «أم سعيد» فكانت تنوي محبته إذا تزوجا، لكنه ظل يسعى ثلاث سنوات ليجد وظيفة وشقة، ففشل. فلما انسدت أمامه السبل في الأرض، استمسك بطرق السماء وصار عضوًا في جماعة دينية كان اسمها «أنصار الله» ثم صار اسمها «نصرة الحق» ثم صار اسمها «جند الحق» وقبل اختفائه منذ أعوامٍ أخبرها بأنه وهب نفسه للجهاد، فإما النصر أو الشهادة.

وهكذا فشلت الزيجة وقد تخطت الثلاثين من عمرها. زميلة دراستها «عبير» تزوجتْ واستقرتْ في قرية قريبة من «بني سويف» وأنجبت طفلين، وهي مثل معظم المصريات دائمة الشكوى من غباء زوجها وعنت أهله وصعوبة العيش.

وأمنيات «مروة» مثل ذكرياتها، بسيطة، فهي تريد أن تنجب. لم تفقد الأمل في ذلك بعد، مع أنها بلغت من العمر أربعة وثلاثين عامًا، لكن نحولها وبراءة ملامحها يوحيان بأن سنها أصغر وأن باب الأمل لم يغلق، وسيأتي يوم تترك فيه سكن المغتربات ويكون لها بيت فيه زوج مقبول، وأطفال يلعبون.. وسرير دافئ.. وطمأنينة.

وصل بها القطار إلى محطة «بني سويف» فلم تلتفت لقذارة المحطة وازدحامها المعتاد، وأسرعت إلى سيارة الميكروباص التي أخذتها من هناك إلى بيت أسرتها. كانت المساجد تستعد لإقامة صلاة الجمعة، وكانت أمها قد أعدت طعام الغداء ودعت «عبير» للزيارة مثلما يحدث في مثل هذا اليوم من كل شهر.. لمّا انفردتا جرى بينهما الحوار المعتاد:

ـ عاملة إيه في شغلك يا مروة؟

ـ كويسة، وإنت حماتك عاملة إيه معاكِ؟

ـ زي ما هي، ربنا ياخدها ونستريح منها.

ـ وأخبار جوزك يا عبير؟

ـ زفت.

«عبير» ازداد وزنها بعد الزواج، وبعد الإنجاب صارت كطفل الفيل وفقدت مسحة الجمال التي كانت تلوح عليها أحيانًا، واستراحت من الأحلام. كانت أيام عذريتها تظن أن الزواج والإنجاب هما غاية المنى، ولم تتردد في قبول «لطفي شاهين» شريكًا لحياتها، وبدون تفكير صدّقت الوعود التي لم يبذلها ولا تعهد بها، غير أنها توهمت أنه سيحقق لها أحلامها.. وبعد السكرة جاءت الفكرة والصحوة سريعًا، وبشكل لم تكن تتوقعه.

ليلة زواجها الأولى كانت خائفة من اقتراب «لطفي» منها، وعندما نزفتْ عرفتْ أن خوفها كان في محله، وأن زوجها ليس له من اسمه نصيب. وفي الليلة التالية كانت تتألمُ عند اندفاعه فيها، مع انعدام خبرته وخبرتها. ولما بكتْ واشتكتْ جاءت نصيحةُ الحكيمات من عجائز الأسرتين، بضرورة هجرهما الفراش أسبوعًا. فاستراحت،

وفرحت بزوجها عدة ليال هانئة حتى وقعت الواقعة في لحظة صفوٍ، حين سألها بود عما تحلم به فقالت وهي تتوسَّد صدره العاري أنها تتمنى أن يأخذها يومًا إلى شاطئ البحر البعيد، فترتدي هناك «مايوه» من قطعتين صغيرتين وترتخي على الرمال وتدخن سيجارة.

ـ إنتِ فاجرة..

زعق بذلك، ثم انتفض من السرير ودخل في جلبابه المعلق خلف باب الغرفة، وغاضبًا خرج وهو يشعر بالعار. ومن سوء الحظ أن أخاه الأكبر، جاحظ العينين «نفعي» كان عائدًا في تلك اللحظة من «الغرزة» التي خلف البيت، فالتقيا عند عتبة الباب. استخبر منه أخوه عما أخرجه من جُحره في هذا الوقت المتأخر، فأخبره، فذهل الأخ الكبير لثوانٍ ثم قال بأسى: يبقى البنت دي ملهاش أمان.

وكان الأخوان من الحمق بحيث أخبرا أمهما بالأمر، فلم تمر إلا أيام معدودة حتى علم الجميع، فصاروا يتغامزون من خلفها ويتضاحكون ساخرين منها بتسميتها «أم مايوه وسجارة» وتوقع الكل طلاقها، لكنها لم تطلق وارتضت بالإذلال في بيت زوج، كبديل عن المصير المجهول للمطلقات الفقيرات. وأنجبت ولدين بالذل، فتحسَّن وضعها نسبيًّا حتى كاد المحيطون بها عدا زوجها وأمه، ينسون ما كان منها ويتناسون حقيقتها التي صرحت بها في لحظة مكاشفة وانفلات لسان.

«عبير» تواسي نفسها بالصمت، وبملاعبة طفليها كلما سنحت الفرصة لذلك، وبلقاء «مروة» عندما تأتي كل شهر.. هي تحب «مروة» وتحسدها من غير غلٍّ، وتؤمن بأنها أفضل حظًّا منها، لأنها تعمل بوظيفة وتسافر إلى القاهرة بمفردها. وتقيم في سكن المغتربات وحدها، حرةً، من دون زوجٍ ينغص عليها أوقاتها هو وأمه.

«مروة» تواسي نفسها بالانهماك في عملها، وبالرضا عن نفسها لأنها أنقذت أسرتها الصغيرة من الفاقة والعوَز، وبالسهر أحيانًا في «الكافيه» القريب من سكنها القاهري.. وهي تحب «لارا» وتحسدها من غير غلٍّ، وتؤمن بأنها أفضل حظًّا منها لأنها لبنانية وتعمل بوظيفة ذات دخل مرتفع، وتسكن وحدها بشقة تليق بالأميرات الراقيات. ولها زوج هناك وحبيب محتمل هنا، وتحتار فيما لا تصح فيه الحيرة.

«لارا» تواسي نفسها بالبحث عن رفيق يؤنس وحدتها القاهرية، وبالأمل في الحصول على الجنسية الفرنسية الحاصل عليها زوجها، وبأنها سوف تستطيع يومًا أن تطوف

بمدن العالم من دون قلق على رصيدها البنكي. وهي تحب صديقة عمرها البيروتية «ديالا» وتحسدها من غير غلٍّ، لأن أباها من أثرياء طرابلس وأمها إيطالية، وتسكن أحيانًا بفيلا فاخرة في بيروت الشرقية، وأحيانًا في شقتها بروما. وهي أم لطفلة من زواجها الأول الذي أعقبته زيجتان، ثم صارت مؤخرًا مطلقةً وحرةً تمامًا ومحبةً للمغامرات.

أقدار الأحجار والقدور والقوارير، لا تقع تحت الحصر.

⋄ الساحرةُ الخيِّرة ⋄

من خلف باب غرفتي، المغلق، وصلني صوت أمي زاعقًا فظننت أنها تزجر «أم خميس» الخادمة وابنتها «فوقية» كالمعتاد، كي تتقنا تنظيف البيت وتجعلا البلاطات تلمع. أمي كثيرة الصياح عليهما لهذا السبب. بهمةٍ عاليةٍ قمتُ من سريري لأستمتع ببعض النظرات المختلسة لجسد «فوقية» البضِّ الممتلئ وهو يهتز بعنفوان يناسب سنوات عمرها العشرين، وغياب زوجها المغترب للعمل في ليبيا، سبَّاكًا. ولن يشك فيَّ أحد وأنا أختلس النظرات لشحن قوى الخيال، لأن الجميع يشهد لي بأنني مؤدبٌ وخجولٌ ومنطوٍ على كتبي الدراسية والروايات الرومانسية، ويظنون أنني صغير السن! كأنهم لا يعرفون معنى بلوغ السابعة عشرة من العمر.. لو عرفوا، لاكتشفوا سري الدفين الذي لا يمكن أن يخطر لهم على بال، وهو أنني كل مساءٍ أدسُّ «فوقية» تحت لحاف خيالي الجامح، فأكون لها بديلًا لزوجها البعيد، وتكون هي جميلةً ونظيفةً وشهيةً مثلما كانت يوم عُرسها قبل عامين.

بهدوءٍ فتحتُ باب غرفتي فلم أجد ما كنت أتمناه، فليس في الصالة الفسيحة إلا أمي تتحدث حانقةً في التليفون. هي لم ترني، لأنها كانت تولي وجهها إلى الجهة المقابلة، ولم تشعر بي لشدة انهماكها في الكلام وغضبها البادي من نبرة صوتها.. مررتُ من أمامها كأنني ذاهب إلى الحمام أو غرفة المطبخ الواسعة، فسمعتها تقول بغيظ: وهو انت يعني مالكش أهل، تسافر لهم لوحدك كده! ده كلام فاضي ولعب عيال.

ـ ...

ـ ولما هي المخفية دي يتيمة، رايح تطلب إيدها من مين؟

ـ ...

ـ يعني إيه مفيش فرح، فيه جواز يتم من غير فرح!

ـ ...

ـ كمان، يعني كلمت أبوك في الموضوع قبل ما تقولي عليه. طبعًا، ما هي الفلوس جريت في إيدك خلاص، وماعدتش محتاج لي في حاجة.

ـ ...

ـ بلا ماما بلا زفت، كفاية كلام مالوش معنى. بس اعرف كده إن قلبي وربي غضبانين عليك ليوم الدين، روح بقى لحال سبيلك يا ابن بطني. بكرة البت الصايعة دي تورِّيك الويل، بس ما تبقاش تيجي تعيط زي النسوان.

***

أغلقتْ أمي خط الاتصال، وقذفت بالتليفون إلى زاوية الكنبة التي تجلس عليها، رأيتها من المطبخ، ولما لمحتني صاحت فيَّ بصوت فيه خشونة وحشرجة ومحاولة لدفع الضعف عنها: بتعمل إيه عندك يا سُهنّ؟ هي تسميني بذلك حين تغتاظ، فلا أكترث، لأن صفة «السهن» ليست أسخف من اسمي ثقيل الظل: ساهر.

ساهر! أمي، حسبما قيل لي لاحقًا، أصرَّتْ على تسميتي بهذا الاسم الماسخ ليكون متناغمًا مع الاسم السخيف الآخر الذي اختارته لأخي الأكبر. باهر. سألتها العام الماضي عن سبب اختيارها هذه الأسماء عديمة الطعم، فقالت إنها كانت تتمنى في أول حملها، إنجاب بنت تسميها «هاجر» فلما عرفتْ أنها حُبلى بولدٍ، فكرت طويلًا حتى استقرت على «باهر» فلما حملتْ ثانيةً حلمت بمجيء «هاجر» لكنني جئتُ ففكَّرتْ طويلًا ثم استقرت على اسم: ساهر.. ليتها ما فكرت، وما استقرت، وتركت لأبي الطيب اختيار اسمي. لو فعلت ذلك، لكان قد اختار لي اسمًا غير مستغرب، لا يثير سخرية زملاء الدراسة، ويرحمني من النكات والتعليقات الباردة السخيفة: اسمك ساهر، وده من إيه لا مؤاخذة! ساهر ده مؤنث سهير! تلاقيك كل ليلة بتقعد صاحي لحد الفجر! ههه، ههه.

***

حين اقتربتُ من أمي بحذرٍ، لمحت في عينيها دموع حسرةٍ تود لو تنسكب. لكن أمي لا يمكنها البكاء علنًا كسائر النساء، لاسيما الأمهات منهن، لأنها مختلفةٌ وشخصيتها قوية ولديها ثقة مفرطة في نفسها. ربما لأنها ثرية. فقد كانت الابنة الوحيدة، المدللة، لجدي الذي لم أره «الحاج زاكي المزجانجي» صاحب مصنع المعسل المعروف على مستوى المحافظة والمحافظات الريفية المجاورة. هو ورث المصنع عن أبيه، وهي ورثته عنه بعد وفاته المفاجئة، وباعته إلى تاجر أدخنة بمبلغ طائلٍ، وباعت البيت ذا الطوابق الأربعة، حيث كانت تسكن مع أبيها ومع أبي في ابتداء زواجهما، وتركت «كفر الدوار» تقززًا من فقر البلدة وبؤسها، واشترت هذه الفدادين العشرين الواقعة على حافة

الطريق الزراعي، بالقرب من بوابة الدخول إلى الإسكندرية. وهي التي بنت فيها هذا البيت الواسع، واخترعت شكله العجيب، لنسكن معها أنا وأخي عندما نتزوج.. أخي «باهر» يكبرني بتسع سنوات، وكان من المفروض أن يكون لنا أخ ثالث كانت أمي تنوي تسميته «ياسر» إذا لم تأت: هاجر.. لكن مخاض ولادته جاءها فجأةً فوضعته تحت بئر السلم بالبيت الذي كانوا يسكنون فيه بكفر الدوار.

أنا لم أر هذا البيت، لكنه بالتأكيد كان منزلًا بائسًا مثل بقية البيوت التي يعيش فيها هناك المعذبون في الأرض. يوم ولادتها الكارثية الثالثة، لم تسنح الفرصة للذهاب بأمي إلى المستشفى لتتم الولادة هناك، لأن الكوبري الذي بقلب كفر الدوار كان قد انهار قبل شهور، ولم يتم إصلاحه قبل مرور سنوات. فكانت الطريق إلى المستشفى شبه مقطوعة، بسبب الاحتشاد والازدحام. استعانوا بقابلةٍ جاهلة، فأصيبتْ أمي بتسمم حملٍ وكادتْ تهلك، واحتاج الوليد إلى رعاية خاصة لم يجدها، فهلك بعد ساعات من ولادته.. «أم خميس» هي التي حكت لي هذه الوقائع، وهي التي أخبرتني بأن أمي منذ ذاك اليوم، صارت حادة الطباع ضيقة الصدر ولا تكاد تثق بأحد.

أما أبي، فهو على النقيض من أمي: هادئ دومًا وصبور. هو من أسرة رقيقة الحال ومشهورة بالطيبة وحُسن الخُلق والخِلْقة والهندام. يعمل طيلة عمره بالشهر العقاري موظفًا، وهو مشهورٌ بأنه لا يقبل الرشاوي. وهذا نادر. أخبرني مرتين وأخبرني غيره، أنه دُعي مراتٍ لدخول انتخابات المجلس المحلي ومجلس النواب، فرفض خوض هذا الغمار لأنه يريد أن يعيش في هدوءٍ، وباحترام.. وهو، منذ بلغتُ حدود العاشرة من عمري، يعاملني كرجلٍ أو كإنسانٍ يستحق التوقير لذاته، وكذلك كان يفعل مع أخي. وعندما بلغ «باهر» العشرين من عمره، صار هو وأبي كالأصدقاء.. أبي عكسُ أمي على خطٍّ مستقيم، ولهذا أحبه أكثر منها بقليل.

أخي «باهر» متعلقٌ هو الآخر بأبي، ويسخر سرًّا من شراسة أمي، ويسميها همسًا: أُمنا الغولة.. كان قبل سفره للعمل بـ«أبوظبي»، يذهب مع أبي في بعض الأمسيات إلى المقهى، ويتسامران طيلة الوقت كالأصحاب. باهر يختلف عني في ميله إلى الضحك، وفي ضيقه بالبقاء في البيت، وفي عدم حبه للقراءة. حصل على دبلومة المعهد العالي للتكنولوجيا، ولم يجد عملًا مناسبًا لمدة عامين كان يراسل فيها جهات العمل في مصر وخارجها. وفي خاتمة المطاف حصل بالواسطة على وظيفة بالإمارات، ولولا سعي أمي

لدى قريباتها ومعارفها الأباعد والمقربين، لما كانت تلك «الواسطة» قد تيسرت فنال تلك الوظيفة.

سافر إلى هناك قبل ثلاث سنوات، بعد السنة الأولى جاء لزيارتنا صيفًا فقضى معنا شهرًا كاملًا، وجلب لنا معه هدايا كثيرة. في السنة التالية لم يأتِ، واستأذن في أنه سوف يقضي إجازته السنوية مع بعض زملاء العمل، بأوروبا الشرقية. وفي طريق عودته لعمله مرَّ بمصر فقضى معنا ثلاثة أيام، وجاء بهدايا أقل من المرة الأولى.. وكان من المفروض أن يأتي بعد أسبوع، ليقضي هنا الإجازة السنوية الثالثة، ولكن هذا المفروض صار فيه شكٌّ بعد هذه المكالمة التليفونية مع أمي.

كانت أمي قد نشطت في الشهور الأخيرة لإيجاد عروس لأخي «باهر» مع أنه قال لها أمامي مرات، إنه لا يحبذ فكرة زواج الصالونات. هذا التعبير جميل ومهذب. يقولون «زواج صالونات» كيلا يصرحوا بأنه عقد قران بين مجهولات ومجهولين لم تسنح الفرصة لأحدهم كي يختار الآخر، لكن أمي تقول إن كل الزيجات لا بد تتم في الصالونات! فليس هناك زواج بلا صالون إلا زواج الصُّياع والضائعين. هي تقول ذلك، وبلا مناسبة تؤكد أن الحب يأتي بعد زواج الصالونات! مع أن «أم خميس» أخبرتني بأن أمي وهي فتاة، كانت مغرمة بأبي وتحبه بجنون، وكان لا يسايرها ويخشى من الاقتران بها لأنه من أسرة فقيرة، وهي ابنة رجل ثري. ولما سمعت بأنه ينوي الزواج بجارةٍ لهما، زواج صالونات، جُنَّ جنونها حتى خشي أبوها عليها وتحايل حتى عرف سر هواها، وتصرَّف. أم خميس، تهمس بأن جدي لأمي هو الذي خطب لها أبي، وأقنعه بالزواج منها.. أمي مشكلة! تُرى كيف كان شكلها حين أحبت؟

***

«إنت مابتردش ليه يا زفت».. أمي نقلتني من مستوى «سُهُنّ» إلى درجة «زفت» وهذا يعني أن غضبها بلغ المدى. كنت أصلًا متجهًا نحوها برفقٍ وصمت، وليس لديَّ مانع من مجالستها والحوار معها علَّها تهدأ، لكنني لما وجدتها تناديني بذلك اصطنعت التأثر والتألم، ومضيتُ مباشرة إلى غرفتي كأنني غاضب وأغلقت خلفي الباب. جلوسي مع الكتب أهدأُ وأسلم. ساعة الغداء نادت عليَّ باسمي، فخرجتُ إليها بهدوئي الذي يغيظها، وأكلت ما أمامي في الطبق بلا كلام. هي لم تأكل، ولم تبك، ولم تحدثني عن مكالمتها التليفونية مع «باهر» كأنها اختارت أن تحتفظ بكل شيء، وبالدموع. لو كانت

مثل معظم الأمهات مسكينة ومتكسِّرة بمطرقة الأيام وسندان المهام، لصارت سريعة الدمع مثلهن وأراحها البكاء.. أشفقت عليها ولم أعبِّر عن إشفاقي، خشية من إثارة غضبها المكتوم.

ساعة العصر سمعت نداء أبي عليَّ من عند الباب، باسمي طبعًا، فخرجت مسرعًا إليه.. كان يبتسم وهو يمد نحوي كيس البلاستيك الكبير الذي فيه الكتب، وبوقار الآباء أخبرني بأن صديقه القاهري «د. حسن» حصل لي على الروايات التي طلبتها، وأرسل معها مجموعة كتب أخرى يقترح عليَّ قراءتها. شكرته، وأردت الإسراع إلى غرفتي فاستمهلني حتى يتصل بصديقه لأشكره بنفسي، ففعلت. أثناء ذلك، جاءت أمي قادمة من غرفتها الأبعد إلى الصالة، وهي تهتز غيظًا. قبل أن تجلس بموضعها المعتاد قالت لأبي: شفت ابنك وعمايله، عايز يموتني ناقصة عمر!

ـ سلامة عمرك يا ابتسام، هدِّي نفسك شوية.

ـ يعني انت عاجبك العمايل دي؟

ـ لأ طبعًا، بس يعني عمومًا دي حياته، وهو حر فيها.

ـ يعني إيه حر! يروح يخطب من ورانا، وبعدين عايز يكتب على البت في المغرب ويجي بيها هنا بعد كام يوم، من غير فرح.. ده إيه ده إن شاء الله؟

ـ يا ستي هو وهي راحتهم كده، ودي حياتهم.

ـ واحنا يعني مانفرحش بيه؟

ـ إحنا نفرح لفرحه، ومادام هو فرحان بكده يبقى خلاص يا ابتسام.. وربنا يسعدهم.

ـ ربنا ياخدني من الدنيا دي. وبعدين كلامك ده معناه إيه؟ هوَّ انت موافق على كده، دا البت مغربية يا إسماعيل.

ـ وماله. المهم إنها نقاوة عينه، وشكله بيحبها.

ـ وهو ده يعرف يحب، دي أكيد عملت له عمل. معروف إن المغربيات بيسحروا للرجالة.

ـ بلاش كلام فاضي. دي مهندسة يا ابتسام، وعايشة في الإمارات من تلت سنين، وجميلة، وابنك بيحبها. مش محتاجة تسحر له علشان تتجوزه. وعلى فكرة، هو قال لي إنها في وظيفة أعلى من وظيفته، ومرتبها أكبر من مرتبه.

ـ آه.. دا انتو بقى متفقين من ورايا، ومرتِّبين كل حاجة، وأنا نايمة هنا في مية البطيخ.

***

أراد أبي الخروج من دائرة الحوار العبثي مع أمي، فأجلسني إلى جواره وقال متودِّدًا إنه رأى لي بالأمس رؤيا جميلة، تدل على أنني سأحصل على مجموع كبير حين تعلن نتيجة الثانوية العامة بعد أيام، وسوف ألتحق بكلية الهندسة مثلما أتمنى. ثم سألني إن كنت رأيت صورة الفتاة التي أحبها أخي «باهر» وسوف يتزوجها. نفيتُ. أخرج من جيبه التلفون المحمول وحرَّك عليه إصبعه حتى ظهرت الصورة فأعطاها لي لأراها.. يااااه.. الفتاةُ ساحرةُ العينين والنظرة، وشعرها منسابٌ باسوداده الفاحم حول وجهها باهر البياض، المشوب بحمرة خفيفة. ما هذا الجمال؟ لم أر فتاة أجمل من هذه! كيف وجدها أخي باهر المحظوظ؟ بعدما ألتحق بالكلية التي أريدها، سوف أسأله إن كانت لها أخت تشبهها.. سألني أبي عن رأيي في العروس، فأجبته بأن المغربيات إذا كن كلهن بمثل هذا الجمال، فلا يجب أن يتزوج أي رجلٍ إلا مغربية.

أمي اغتاظت من كلامي ووصفته بأنه قلة أدب، وسفالة، وأبي ضحك وقال نيابةً عني إنني لم أقصد شيئًا. حادثت نفسي سرًّا: لا يا أبي، أقصد.. أقصد أن «باهر» سوف يتزوج هذه العروس الفاتنة، مهما فعلت أمي المسكينة لتمنعه. فمثل هذا الجمال النادر لا يمكن أن يُترك إذا صودف.. وأقصد أنكِ يا أمي لن تنتصري على هذا القمر الخلاب، مهما زعمتِ أنها غريبة عنا أو أنها تسحر.. فهي فعلًا ساحرة.. ومبهرة.. وتفيض رقة ومودة.

ـ إنت يا ولد، مالك تنَّحت كده؟

ـ مفيش حاجة يا ماما، مفيش..

.. فيه يا أمي الكثير.. وسوف تكون الحياة أحلى حين يتزوج «باهر» هذه الفتاة الفاتنة، برضاكِ أو بدونه.. فاهدئي أو تشنَّجي، فلا فرق.. يا سلام عليك يا «باهر».. فعلًا، برافو.

***

مرَّتِ الأيامُ وأمي لم تهدأ، وباهر لم ينصت لنصحها. سافر إلى المغرب وعقد قرانه على «فوز» وذهب بها إلى إسبانيا للغرق في بحار العسل ومحيطاته، وفي طريق عودتهما إلى

عملهما مرا بنا مثلما تمر النسمات الباردة في الصيف اللاهب، فأقاما معنا بالبيت أسبوعًا. «فوز» زوجة أخي أجمل من صورتها بكثير، وأرق، وأنعم، وأشهى. أمي استسلمت لسحر العروس بعد يومين من وصولهما، مع أنها كانت قد أرسلت سائقًا ملأ لها من مياه البحر «جركن» ومسحت به الأرض ورشته في الأركان، لاعتقادها أن ماء البحر المالح يزيل السحر. لكنها في نهاية أمرها استسلمت. ربما لرقة «فوز» وأناقتها وحبها لأخي، وربما لذكائها وقدرتها على تفهم الأزمة التي تعصف بأمي، وربما لأثر «زيت الأرجان» الذي أهدته إلى أمي، وربما لمهارتها في طبخ الفراخ بزبيب العنب والقراصيا. ناهيك عن «الكسكسي» اللذيذ الذي أحضرته معها من بلدها، وربما لانبهار أمي بالعباءات الموشاة التي كانت «فوز» ترتديها في الأمسيات.

بعد سفرهما، أقلعتُ عن إعجابي المستور بالمسكينة «فوقية» ولم تعد الفتيات في الكلية يلفتن نظري، فظن الجميع أنني مؤدب.. هم لا يعلمون بما نويته سرًّا: إذا أخلَّ أخي «باهر» بوعده لي، ولم يأخذني معه إلى المغرب بعد تخرجي لأختار عروسًا مثل «فوز» فلن أنهزم، وسوف أذهب وحدي وليكن هناك ما يكون.

◊ بعد خاتمة المطاف ◊

أمضيتُ أمس يومًا طويلًا مجهدًا ومزدحمًا بالمشاعر، بسبب طلاقي، وعدتُ إلى البيت منهكة.. وبعد ليلة ليلاء مليئة بالقلق والأرق، صحوتُ من خطفات الوسن مستريحةً ساكنة البال، بعكس المتوقع. وهذا عجيب. يبدو أن المقدمات ترتبط بالنتائج في أذهاننا فقط، وليس في الواقع الفعلي المدهش دومًا. عمومًا، من حسن حظي أن أجدني الآن نشيطة كأنني نمت طويلًا، ويجب الاستمتاع بحالتي الصباحية هذه قبل فقدانها.

قمتُ من سريري مسرعةً، وباسمةً أعددتُ فنجان قهوتي وذهبت به وبقطعة «الشيكولاتة» السوداء إلى مكاني المفضل بشرفة الشقة المطلة من علٍ على ميدان التحرير الفسيح. لا سيارات كثيرة في هذا الوقت المبكر، يعني لا صخب ولا تلوث هواء. أشعر بأنني موجودة الآن بالكامل، وممتلئة تمامًا باللحظة الحالية، الحانية.. احتسيتُ رشفةً من فنجاني فارتفعت مع رائحة البن الفاخر إلى سقف النشوة الطفولية اللذيذة، وعلوت عن موضعي بخيالي حين قضمت قطعة من الشيكولاتة البلاك وأغمضت عينيَّ، وتركتها تذوب برفق في فمي. ما هذا الصباح الحنون الذي أعادني فجأة إلى سنواتٍ بعيدةٍ مضت! من المدهش أن تعاودني مشاعرها هذه، من بعد طول الغياب.

نشأت في شقة أبي هذه، نشأةً ناعمةً مفعمة برعاية جدي «باخوم» وأبي «عادل» وأمي «ميري» وكان الثلاثة يتنافسون لإسعادي بكل السبل الممكنة، فكان زماني الأول مبهجًا في معظم الأوقات. أكبر مشكلاتي آنذاك تتمثل في أنني مثلًا: تأخرت دقائق عن مدرستي! أو أنني لا أجد وقتًا كافيًا لمشاهدة المسلسلات التليفزيونية بسبب كثرة المذاكرة والواجبات المدرسية، أو حيرتي من القلق الخفي الذي ألمحه أحيانًا في عين أبي.

في الصيف الذي اجتزتُ بأوله امتحانات الثانوية العامة، والتحقتُ في آخره بالجامعة الأمريكية لدراسة «إدارة الأعمال» سألتُ أبي عما ألمحه فيه من قلق فقال: لا شيء.. حاولت استدراج جدي للحديث عما يؤرِّق أبي، فابتسم برفق ثم قال: لا شيء. كانا يظنانني صغيرة. أمي همست إليَّ ذات ليلة، بأن والدتها همست إليها ذات ليلة بسبب القلق الذي ورثه أبي عن أبيه، وأخبرتني بأن كليهما مشغول البال بالحال العام. فهما لا يستبشران بمستقبل مصنع الملابس الذي يملكانه، لأن المنتجات الواردة من الصين تغزو الأسواق بأسعار لا يمكن منافستها. وهما مشغولان بانتشار موجات التعصب

الديني، ويريان أنها لعبة سياسية لن تؤدي إلى خير! لم أفهم كلامها أيامها بشكل تام، فانتهزتُ الفرصة يوم الأحد التالي حين وجدت أبي جالسًا وحده بهذه الشرفة يرتشف من كوب الشاي. سألته:

ـ يعني يا بابا، يا حبيبي، أنا هادرس إدارة أعمال وحضرتك قلقان على الأعمال. ينفع كده.

ـ ومين قال لك يا «فيبي» إني قلقان؟

ـ «ماما» قالت لي على كل حاجة، وعلى فكرة، أنا ماعدتش صُغيَّرة.

ـ مهما تكبري، هاشوفك صغيرة. عمومًا، مفيش حاجة خطيرة بس هي طبيعة الحياة كده، كلها مصاعب. وكلها لها حل بمشيئة الرب، إنما بتحتاج شوية صبر.

يومها حكى لي أبي أن جدي واجه صعوبات أشد، بسبب «بلطجة» التأميم وانتزاع مصنعه للملابس بدعوى الاشتراكية، لكنه لم يستسلم واستطاع بعد فترة إنشاء مصنع جديد. وسارت الأمور بشكل جيد، لكنها ساءت مؤخرًا لأن المنطقة التي فيها المصنع، ازدحمت بالمساكن العشوائية وصارت موئلًا لنوعين من الناس: الخارجين عن القانون، والمتعصبين دينيًّا. وكلاهما يثير المشاكل يوميًّا ويتصاعد غباؤهما بلا رادع. ومن ناحيةٍ أخرى، حوصرت منتجات المصنع بمثيلاتها المستوردة من الصين، وهي أردأ وأرخص سعرًا.. والناس صاروا يميلون إلى الرداءة والرخص.

«يا عيني عليك يا بابا».. قلت ذلك بعين تدمع، فضحك أبي أو اصطنع الضحك، واحتضنني ثم أوقفني بجانبه عند سور الشرفة المطلة على قلب القاهرة، وقال إنه سيجد حلًا خلال الأسابيع القليلة المقبلة. وقد كان. إذ باع المصنع وأودع الأموال في بنكٍ فصرنا نعيش على فوائدها، وأعلن اعتزاله العمل ومعظم الناس.

في السنة الثانية من دراستي الجامعية صعدتْ أمي إلى المجد السماوي فجأة، بعد معاناة قصيرة من مرض السرطان. مع أنها لم تكن تدخن. وفي السنة التالية لحق بها جدي، فانفردتُ مع أبي بهذه الشقة الواسعة، وازداد التقارب بيننا حتى صرنا كالأصدقاء. ومرت مع الأيام الأحزانُ. وفي السنة الأخيرة من سنوات دراستي عرفت «رامي» وأحببته بشدة، بل عشقته بعنفوان لم تكن هناك موانع تعوقه، حتى كان اليوم الذي انزعج فيه أبي بشكل مفاجئ. كنت أحكي له كل شيء. أو معظم الأشياء! فلا أحد يحكي كل شيء: جلساتي مع «رامي» في كافتيريا الجامعة، رقَّة أحاديثه، اجتهاده

للحصول على درجة الماجستير في الهندسة الميكانيكية، احترامه لي.. وكان ذلك يسعد أبي ولا يثير عنده أي امتعاض، حتى كانت الظهيرة التي أخبرته فيها بأن إكليل «صوفيا» أخت رامي، سيكون بعد يومين بكنيسة «الكوربة» بمصر الجديدة، وبأنني أفكر في الحضور لمشاركته هذه المناسبة السعيدة.. سألني بقلقٍ عن تلك الكنيسة، فأخبرته بأن «رامي» أخبرني بأنها في أول شارع خالد بن الوليد. انزعج فجأة وهو يقول مستنكرًا: دي كنيسة إنجيلية! لم أفهم مقصده، فأضاف بامتعاض: معنى كده إن «رامي» بروتستانتي.. يعني.. يووه!

***

لم يكن أبي يومًا متعصبًا، أمي وجدي كانا كذلك وكانا يملآن حوائط البيت بصور وعبارات البابا كيرلس والبابا شنودة، مثل قول الأول منهما «في الطاحونة وجدت معونة» وقول الآخر «مصر ليست وطنا نعيش فيه، بل وطن يعيش فينا» وكانت أركان البيت مليئة بعديد من مجسمات القديسين، وبكثير من الأيقونات. كانا يجدان في ذلك نوعًا من الحماية الوهمية. أما أبي فلم أعهده مهتمًّا بتلك الأمور، وحين اعتزل العمل صار يقرأ كثيرًا، وكثيرًا ما رأيته ينظر في العهدين القديم والجديد، وفي القرآن! وحين استخبرت منه عن الأمر قال ببساطة إن الأديان كلها تهدف لإصلاح حال الناس وتهذيب أخلاقهم، لكن التعصُّب يؤدي إلى عكس ما يريده الدين. تفاصحتُ وتعالمتُ مرةً وادعيت الإحاطة فقلت له مستوثقة مما أقول، إن هناك ديانات معروفة بعنفها وأخرى مشهورة بالمحبة. لم يقبل قولي وأجابني برفق: لأ، العبرة بالناس وطريقة فهمهم للدين.. ولم يبحر معي يومها في هذا الخضم الوعر، وقد كان دومًا ينهاني عن الخوض في تلك الأمور.

عرفت من أبي أنه انزعج من إنجيلية «رامي» لأنه كان يتوقع أن تنتهي صداقتنا بالزواج، لكن ذلك صار الآن في حكم المستحيل، للأسف.

ـ ليه يا بابا؟

ـ يعني انتِ مُش عارفة أحكام كنيستنا!

ـ أحكام إيه بس يا بابا، وماله يعني لما يبقى إنجيلي؟

ـ يا فيبي، افهمي. كده مفيش أي فرصة قدامكم للجواز.

لم يكن «رامي» قد تحدث معي في أمر الزواج، ولا حتى بالتلميح، لكنني حين أخبرته ببعض ما دار بيني وبين أبي من كلام عن الكنائس. صارحني بأنه لا يؤمن بكل ذلك، وأنه أقرب إلى الإلحاد منه إلى أي ديانة أو كنيسة. كيف؟ قال إنه يظن أن ذلك كله نتاج لحركة التاريخ. كيف؟ قال إن هذه المعتقدات كلها، نبعت من مخاوف البشر وأوهامهم، ومن محاولة الحكام إحكام القبضة على المحكومين. كيف؟ قال إن المعتقدات الدينية هي أسهل وسيلة للسيطرة على بسطاء الناس، وهي أقرب طريقة يمكن بها إهدار قيمة الآخرين لدى الآخرين، وهناك أمثلة كثيرة مؤكدة لذلك في التاريخ.. خفت من استكمال الكلام معه في ذلك، وغيَّرت الموضوع.

.. أعجبني في «رامي» أناقته وعقله الذكي واهتمامه بالتفاصيل التي تخصني، وسألته عما يعجبه فيَّ فقال من فوره: كل شيء.طلبت منه التوضيح، مبتسمةً، فقال: الابتسامة دي، والعنين الحلوة دي، وطريقتك في الكلام، ورقتك.. عارفة يا فيبي، متهيأ لي إنتِ حفيدة «ميريت آمون» فيه بينكم شبه كبير، أنا شفت تماثيل كتير ليها، وليها صور تقدري تشوفيها على النت، هتلاقيها شبهك جدًّا.

كلام «رامي» جميل، ويسلب العقل والقلب والروح.

***

أواخر العام ٢٠٠٩ صارحت أبي بأنني أحب «رامي» ولن أستطيع العيش بعيدة عنه، وبأنه وجد فرصة عملٍ جيدة في «سوريا» وسوف يسافر بعد شهر، ويقترح أن أسافر معه ونتزوج هناك بعيدًا عن التعقيدات الموجودة بمصر بين الأقباط والإنجيليين. بين الكنائس والكنائس، وبين المسيحيين والمسيحيين، وبين المسلمين والمسلمين، وبين الجميع والجميع. استمهلني أبي يومًا ليفكر، ثم أبدى موافقته بعدما نبَّهني إلى ما كنت أعرفه مسبقًا: زواجي لن يكون معترفًا به كنسيًّا، ولن يقبل به معظم الأقباط، لكن هذه حياتي أنا.

في مطلع العام ٢٠١٠ سافرت مع «رامي» إلى سوريا وتزوجنا هناك، وكان يوم زواجنا متوافقًا مع يوم مولدي الخامس والعشرين. وبعد عشرة أيام من الزواج جاءني أبي زائرًا وأقام معنا أسبوعًا، فاكتملتْ فرحتي وصار كل ما في الكون من حولي، يضحك. كنا نقيم في بيتٍ جبليٍّ قريبٍ من المنطقة القريبة من «اللاذقية» حيث يقام المصنع الذي يعمل «رامي» في تأسيسه وتركيب ماكيناته. كنا أحيانًا نقضي الأمسيات في

اللاذقية وإجازات نهاية الأسبوع في جنوب تركيا، حيث الشواطئ الساحرة والتسامح مع الكون، وحيث عرفت لذة ارتداء «مايوه» من قطعتين والتحرك به بحرية على «البلاج» بلا شعور بالوجل أو الخجل.

شمال سوريا يشبه الجنة. هواءٌ نظيف صافٍ، وخضرةٌ وفيرة، وتلالٌ مفروشة بالشجيرات والزهور البرية، وحبيبُ قلبي «رامي».. ما كنتُ أريد المزيد من السعادة والراحة، غير أن خاطر الإنجاب كان يخايلني أحيانًا، فألتزم بما اتفقت عليه مع «رامي» من إرجاءٍ لهذا الأمر خمس سنوات حتى أبلغ الثلاثين ويبلغ الخامسة والثلاثين، ونكون مستقرين في مكان ثابت. وقد تمنيت أن يكون هذا المكان هو خاتمة المطاف، الثابت، فقد كانت لنا فيه الجيرة الجيدة والصحبة الحلوة، فالسوريون وُدعاء ومتسامحون ومحبون للحياة. وهم غير متعصبين، ولا يخوضون في الأمور العقائدية الوعرة.. هكذا عرفتهم، أو هكذا كانوا أيام كنت أعيش بينهم.

بعد عام النعيم، ظهرتْ فرصة عمل أفضل لرامي في «دبي» فانتقلنا إلى هناك، ووجدتُ وظيفةً جيدة في شركة لخدمات الإنترنت. كنا نسكن في أطراف «الشارقة» القريبة من دبي، حيث أعمل، ومن منطقة اسمها «جبل علي» حيث يعمل زوجي. وكان من العجيب أننا ذهبنا إلى هناك يوم السابع من شهر يناير، وهو الموافق يوم زواجنا قبل عام، ويوم عيد ميلادي السادس والعشرين.

هناك، لم أشعر بالاختناق من النواحي القاحلة المحيطة. شغلني عن ذلك انتظامي في العمل، والدخل الوفير، وبساطة العلاقات الاجتماعية بين أناس جاءوا من أنحاء الأرض، ومن مختلف الديانات. وتركوا ما كانوا فيه وراءهم، وانهمكوا في العمل معظم الوقت، والتسرية عن أنفسهم أحيانًا بالسهرات الهادئة في المطاعم.. دعوتُ أبي لزيارتنا في منتصف شهر فبراير، لكنه لم يستطع القدوم إلينا إلا في نهاية الشتاء. لأن الأحوال التهبت بمصر واحتج المحكومون على الحاكم، والمسلمون المتعصبون على المسيحيين، والفقراءُ على الأغنياء. واصطخبت الميادين والتهبت، حتى اضطر أبي لترك بيتنا في ميدان التحرير، الذي كان بؤرة الصخب والعنف الذي انفجر، وأقام في شقة صغيرة بالإسماعيلية استأجرها من ابن عمٍّ له يعمل منذ تخرجه في هيئة قناة السويس، ويمتلك منزلين صغيرين هناك. كنت قلقة على أبي وكان يهوّن عليَّ مجريات الأمور، مؤكدًا أن متابعة الأخبار في التليفزيون تعطي صورة مبالغًا فيها.

وعندما اندلعت النيران في سوريا، بعد شراراتٍ من الجنوب ومن الشمال، بدأت أفكر جديًّا مع «رامي» في الهجرة إلى كندا أو أستراليا، وحلمت بأن أبي الذي شاخ فجأة سيكون معنا هناك ليقضي الباقي من عمره في هدوء. إذ كان من الجلي، أن الأحوال لن تعود لسابق عهدها الهادئ، في مصر أو سوريا.. فالأولى وقعت في فخ الإسلاميين، والأخرى تعاني منهم الويلات.

***

أمضيتُ في «دبي» ثلاث سنوات لا بأس بها، تخللتها إجازاتٌ صيفية قضيناها في تركيا واليونان وإيطاليا، وفي عام ٢٠١٥ بدا لنا أننا سوف نستقر نهائيًّا في «دبي» وكان أبي قد عاد إلى بيتنا المطل على ميدان التحرير، وكان هناك على موعد مع الموت.. اضطررنا إلى الذهاب لمصر على عجل، وهناك عانيتُ أصعب الأوقات ورأيت أسخف أحداثٍ مرت بعمري الذي اقترب من الثلاثين سنة. وما كان ما كان ليخطر لي على بال، لأنني ما تخيَّلتُ أن تغوص الكراهية في القلوب إلى هذا الحد. عندما ذهبنا إلى الكنيسة للصلاة على أبي المتنيح قبل دفنه، كان معظم الحاضرين ينظرون نحوي بازدراء، وباستثناء «طنط تيريزا» وامرأة أخرى لم أعرفها، لم يقدِّم لي أحدٌ من الحاضرين تعزيةً. كانوا يرونني زانية. ثم همهم بعضهم وطلب إخراجي من الكنيسة، لأنني دنس. وعندما ذهبنا إلى المدافن، ازداد الحال سوءًا وإساءةً لي، بالتهامس والتجافي من معظم الموجودين، وبالسخيف من الإشارات والكلمات الجارحة.. وكان «رامي» عند ابتداء الأمر يكتفي بمط شفتيه كل حين، ثم صار يهمس لنفسه بغيظٍ كظيم: متخلفين.. ولما بلغ به الحنق مداه، احتدَّ على أحد الحاضرين وشتمه.

عاد «رامي» إلى عمله بعد أيام الأسى الثلاثة، واضطررت للبقاء وحدي أسبوعًا من أجل إنهاء الإجراءات الكفيلة بحصولي على ميراثي والوديعة التي في البنك. بعد محاولاتٍ فشلتُ في الصبر على الغباء الإداري، فوكَّلتُ محاميًا لإتمام المعاملات الرسمية المعقدة ولحقتُ بزوجي.. الذي صار بالأمس طليقي.

***

فور عودتي إلى «رامي» لمحت فيه تغيرًا خفيًّا لم أدر سببه، فقدَّرت أن الإهانات التي لحقت بنا خلال وجودنا الأخير بمصر هي السبب، وصبرت. وبعد فترة، انفجر فجأة وهو يتحدث معي مساءً، لأنني أخبرته بأن المحامي أوشك على الانتهاء من مهمته،

والأمر يقتضي السفر إلى مصر لعدة أيام، فقال زاعقًا إن عليَّ السفر وحدي، لأنه لن يذهب لمصر أبدًا. تجنبتُ الصدام معه وصبرتُ عليه يومين، ولما وجدته يصرُّ على موقفه سافرتُ وحدي وبقيتُ أسبوعًا بعيدة عنه، علَّه يهدأ.

لكنه بعد عودتي، استقبلني بفتورٍ وملامح لم أعهدها، وصار يتحاشى الحديث معي ويجاوبني بأقل الكلمات. صبرتُ. يوم عيد زواجنا وميلادي لم يتحمَّس لأي احتفال، فلم ألح عليه على اعتبار أننا نمر بفترة حرجة يلزمها التحمل، وصبرت. صار في معظم الليلات ينام على الأريكة التي بصالة الشقة، كأن النعاس غلبه وهو يشاهد الأفلام الهندية الطويلة المملة. ولما فاتحته في مسألة الإنجاب بحسب ما اتفقنا عليه قبل ست سنوات، قال ما لا يمكنني الصبر عليه: يا ريت تنسي الموضوع ده خالص!

ـ يعني إيه يا ميمو؟

ـ يعني زي ما سمعتِ كده، وده آخر كلام عندي.

ـ أنا حاسة كده إن فيه واحدة تانية في حياتك.

ـ قصدك إيه؟

ـ يا «رامي» مفيش داعي للمماطلة، قول بصراحة، فيه واحدة تانية غيري؟

ـ أيوه، فيه.. عايزة إيه دلوقتي؟

ـ ولا حاجة، عايزاك تطلقني.. واحنا جوازنا مدني، ومفيش أي مشكلة في الطلاق.

ـ معنديش مانع!

ـ بس لازم في مصر، علشان نوثق الطلاق رسمي. عندك مانع؟

ـ ممكن أوكل محامي للموضوع ده؟

ـ لأ.

يوم الاثنين الماضي وصلتُ القاهرة بالطائرة الصباحية، وجاء هو من «دبي» بطائرة المساء. ويوم أمس «الثلاثاء» أتممنا إجراءات الطلاق، وانتهى زواجنا المدني واختتمنا المطاف الذي امتد بنا سبع سنين وبضعة أشهر.. وعدت عصرًا إلى هذا البيت وحدي، وسأبقى وحدي فترة لا أعرف مقدارها، لكنها مهما استطالت بي فسوف يعقبها لا محالة مسارٌ آخر، لا أدري الآن كيف سيكون، لكنني واثقة من أنه سيكون.. ففي آخر المطاف، هناك مطافٌ آخر سيبدأ لا محالة بعد حينٍ، مادمتُ حية.

◊ بلدة المجد ◊

الأَرَقُ قاسٍ، وسوف تكون هذه الليلة طويلة. أعرف ذلك وأتوقعه. والتوقع لأمر ما قد يعين علىٰ احتماله حتى يمر بسلام! كل شيء يمرُّ بسلام ويسر، أو بمعاناة وعسر، لكنه في كل الأحوال سوف يمر وينقضي. لأن الإنسان نفسه محكومٌ عليه بالمرور والانقضاء، فإذا استدام حالٌ وطال أمده فلم يتبدل، مثلما يحدث هنا منذ زمن، عانى منه الواحدُ من الناس حينًا ثم مات عنه واستراح منه. كما ارتاح أبي وأبوه من قبله بعدما أمضيا حياتهما في معاناة طويلة من تلك «الخرابة» التي خلف بيتنا، وكانت مساحتها قبل أن تتسع على هذا النحو، صغيرة. الصغير يكبر، والكبير يموت.

البلدة التي نسكنها اسمها اليوم «المأوى» وكانت سابقًا تسمى «المجد» وهي تقع عند طرف الضفة الشرقية من وادي النيل، حيث تلتقي الأرض المزروعة الخضراء بالصحراء الصفراء الممتدة حتى الجبل الشرقي، وحيث يلتقي الوادي الطويل بدلتاه. ويقال إن بلدتنا كانت في الأزمنة الغابرة عامرة، وحين توحدت البلاد على يد الملك «نارمر» الممدوح باسم «مينا» أي المؤسس، جعل هنا حاميةً كبيرةً لتصد هجمات البدو القادمين من نواحي الجوع القاحلة.

وبيتي هذا الواقع عند الطرف الشرقي للبلدة الشرقية، كان قصرًا كبيرًا يسكنه أمير الناحية وقائد الحامية، ثم تقلص حجمه مع الأيام وتهدَّمت بعض جوانبه بسبب الزلازل وعوادي الزمن، فصارت مساحته ضئيلةً وامتدت من خلفه تلك «الخرابة» التي تتسع كل يوم وتلحق بها خرائب أخرى، بسبب هجران الناس لبيوتهم القريبة منها والمحتفة بها.. في طفولتي كنت أسمع من أمي حكاياتٍ كثيراتٍ عن العفاريت التي تسكن الخرابة، فأتخيلها عند هجوعي، فتطرد عني النوم. وذات ليلة، وكنت آنذاك في الثانية عشرة من عمري، دهاني داءٍ دفعني لترك سريري والتسلل إلى سطح البيت. كنت كالمندوه مسلوب الإرادة. وفي قلب الليل وقفتُ وحدي أحدِّق في ظلام الخرابة وجدرانها المهدَّمة، ولما استطال نظري إلى هناك بعين الخوف والوجل، لمحت عفاريت تتزحَّف على الأرض وأخرى تنزلق على جوانب الجدران، ثم تتصعد ثانيةً. أصخت السمع فوصل إلى أذني هسيس احتكاك العفاريت بالحيطان المتشققة المتداعية إلى السقوط، وأطلت النظر بعين الرعب فرأيت كل هذه الكائنات المخيفة تنظر نحوي

بأعين حمراء، ينقدح منها الشررُ والرغبةُ في الافتراس. فأدركت من فوري أنها تنوي التهامي، وتأكدت من ذلك عندما وجدتها تسرع نحوي، وتتسلق السور القصير الفاصل بين بيتنا والخرابة. صرخت بفزع الموشك على الهلاك.

سمع أبي صرختي فأسرع إليَّ من غرفته مهرولًا، ولحقت به أمي، فاحتضناني بالأذرع الأربع حتى خمد ارتجافي. كانت أمي تتلو تعاويذ تجلب إلى قلبي الاضطراب، ولم تصمت حتى نهرها أبي عما تفعل، فهدأتْ واستطعتُ الوقوف على ساقيَّ بعدما كنت منهارًا.. نزل بي أبي الدرج وأمي خلفنا، وفي غرفة الضيوف أجلسني إلى جواره بعدما أضاء الأنوار كلها، فصيّر الليل كالنهار. سألني عما أصعدني في جوف الليل إلى السطح، فقصصتُ عليه القصص، وأمعنتُ في الحكي حتى كاد الرعب يعاودني بسبب استعادتي ما كان، فأسكتني أبي وأراح راحته الحانية على رأسي.. وبعد دقائق سكنت وتلاشت مخاوفي.

قال لي يومها إنني أتوهَّمُ ما أقول، فليس هناك عفاريت إلا في خيالي، لكن الخيال يحاصر الإنسان بالأوهام فتغوص فيه وتبدو كأنها حقائق. سألته مستغربًا: يعني مفيش عفاريت في الخرابة؟ فقال واثقًا إنها لا توجد في الخرابة ولا في غيرها، هي فقط في وهمي وخيالات خوفي.. قاطعته أمي بقولها: بس يا حاج العفاريت مذكورة يعني في القرآن.

نظر إليها بعتاب ممزوج بغيظ وغضب، فغضَّتْ نظرها كالمتأسفة المستسلمة، فاكتفى بقوله لها: ربنا يسامحك. وقال لي: تعال نام في سريرنا والصباح رباح.. وفي ذاك الصباح الصيفي التالي أخذني معه إلى السوق الأسبوعي، وفي طريق رجوعنا أجلسني بالمقهى القديم وطلب لي العصير المعلب الذي كنت أحبه، فشربته مستمتعًا وشاعرًا بأنني كبرتُ وصرتُ كالرجال أجلس بالمقهى. وهناك قال لي أبي برفق، إن البدو الذين كانوا قديمًا يهيمون في الصحراوات الشاسعة البعيدة عن بلدتنا، كانوا يتوهمون وجود كائنات لا تُرى في النهار، منها الغول والعنقاء والجن والعفاريت. وكانوا من كثرة ما يحكون عن هذه الأوهام يصدقونها، لكنهم حين سكنوا المدن والبلدات الكبيرة انشغلوا عن تلك الحكايات وكفوا عن ترديد الخرافات، فاختفت، ولم يعد أحد يتحدث عن الغول أو العنقاء فانعدما، ولكن ظلٍ بعضهم يذكر العفاريت ويتسلى بالحكي عنها، فيظن مع تكرار ذكرها أنها موجودة فعلًا.

قلت له إنني شعرت بها في ليلتي السابقة، كأنها قادمة نحوي لكي تلتهمني! فسألني

إن كنت قد سمعت من قبل بأحد التهمته العفاريت، فنفيت، ثم استدركت بقولي إنني سمعت من أمي ومن غيرها عبارة «اللي يخاف من العفريت يطلع له».. ضحك بوقار ثم قال بأن المقصود من العبارة، أن العفريت وَهْمٌ لا يظهر إلا لمن يعتقد بوجوده ويخاف منه. ولهذا لا يظهر العفريت لجمع من الناس، هو يظهر فقط في وهم الخائف منه إذا انفرد، وازداد خوفه، فجعل وهمه الوهم كأنه حقيقة تُرى.. وأضاف أنه في طفولته كان يتوهَّم تلك الأمور، حتى أفهمه جدي أنها خرافات، فاختفت. وأخبرني أنه قبل زواجه بأمي كان كثيرًا ما يختلي بنفسه في الليل بالخرابة، وفي بعض الليلات كان ينام حتى الصباح على الدكة الخشبية التي بوسط الخرابة، هربًا من حر الصيف وازدحام البيت بأخواته الثلاث وإخوته الخمسة، خصوصًا أنه كان ينزعج كثيرًا من شخير عمي «صفوان» أصغر إخوته سنًّا.. وطيلة تلك السنوات لم ير أبي بالخرابة إلا الجدران، لأنه كان قد تحرر من أوهامه.

بعد ذلك بأيام، سألت أبي عن أعمامي فقال إنهم أثناء شبابهم استجابوا إلى تشجيع العمدة لهم بالسفر، وانخدعوا بالأماني التي صورها لهم فذهبوا للعمل خارج البلاد، على أمل العودة بعد سنوات بالمال اللازم لبناء بيوت جديدة في موضع الخرابة. لكنهم انشغلوا بجمع المال عن الغرض منه، ونسوا الأمل في العودة والبناء. وظلت الخرابة خربة.

وأخبرني أبي أنه كان يتمنى أن يرزق بأولاد كثيرين، كي يستطيع أن يقوم بما أهمله إخوته الذين ذهبوا ولم يرجعوا، لكن الله لم يعطه من الذرية غيري. ولذلك، فالأمر مؤجل إلى حينٍ حتى أكبر وأتزوج وأنجب، فأسوِّي أرض الخرابة وأبني فيها بيوتًا للسكنى، أو دكاكين للتجارة، أو مقهى ليلتقي فيه الرجال.. وقد راقت لي هذه الفكرة، ورأيت أنها تستحق التنفيذ حين يأتي الموعد المناسب.

***

الأَرَقُ قاسٍ، وهذه الليلة استطالت كأن ظلامها لن يسفر عن إصباح. نظرتُ في ساعة يدي الموضوعة تحت مخدتي، فوجدتها تشير إلى منتصف الليل ولم أجد عندي استعدادًا للنعاس، فانسحبت من تحت اللحاف بحذر كيلا أوقظ زوجتي «نسمات» وجلست مستسلمًا للسهد على الكرسي المجاور للسرير. لكنها أحست بي فاستدارت وهي بعد مستلقية وسألتني عما يقلقني، فقلت: لا شيء.. هي تعلم ما بي، لكنها تواسيني بسؤالها.

«نسمات» امرأة طيبة وأمها كانت طيبة وحنونا وكان أبوها رجلًا فاضلًا، اختارها أبي زوجةً لي فور بلوغي العشرين، لأنه كان يود رؤية أحفاد كثيرين، ووافقت لأنها كانت جميلة وشهية. أعني أنني كنت وقتها أرى الجمال في النساء، وأتوق فأشتهي. غير أنها تأخرت في الحَبَل بلا سبب من جهتها، وأخبرني الطبيب أن الإنجاب صعب لكنه ليس مستحيلًا، لأن حيواناتي المنوية ضعيفة. ونصحني بالصبر. حزن أبي سنوات، ثم مات واستراح من الأمل ومن ترديد الأدعية. وبعد رحيله بأربعة أعوام. استجاب الله له وحملت «نسمات» بعد لأيٍ وطول ترقُّب، وأنجبت لي ابني الوحيد «محمد» البالغ من عمره اليوم اثنتي عشرة سنةً. حفظه الله لنا.

سألتني «نسمات» إن كنت أريدها أن تحضر لي شيئًا لأشربه، فشكرتها ودعوتها لمعاودة النوم، واعدًا إياها سأعود إلى نومي بعد هنيهةٍ، فشدَّتْ إلى كتفها طرف اللحاف وأسبلت جفنيها. هي تعلم ما بي، وتعلم أنني أعلم أنها تعلم. فقد عايشت معي الحلم الذي تبدَّد اليوم، وكانت تستبشر بما أخطط له أو تظهر لي استبشارها به لترضيني. فهي تدرك اهتمامي الوفير بالمشروع الكبير الذي طالما حلمت بتنفيذه، وحين أخبرتها بأنني اتفقت مع صديق عمري «نافع» وأبناء عمومته الثلاثة على التشارك لإنشاء مزرعة الدواجن في موضع الخرابة، أنا بملكية الأرض، وهم بالجهد والمال اللازم لتسوية الأرض وإقامة العنابر وشراء بطاريات التفريخ.. وقد كاد يتم كل ما اتفقنا عليه، لولا خُبث العمدة.

عمدة بلدتنا الذي كان قبل عُمديته غفيرًا ثم شيخ غفر، يتاجر بكل شيء. ورث أرضًا بورًا عن أبيه الذي كان في مبتدأ أمره غفيرًا ثم شيخًا للغفر ثم عمدة، وورث عنه أيضًا مكتب توظيف العمالة وشركة الصرافة وتحويل الأموال. ومثلما زَنَّ أبوه قديمًا في أذن أعمامي حتى أقنعهم بالسفر إلى بعيد، ولم يعودوا. فعل الشيء ذاته مع «نافع» وأبناء عمه حتى اقتنعوا بما خيّله لهم، وقبلوا بالسفر إلى خارج البلاد للعمل كأجراء. وانهار بذلك كل ما اتفقت معهم عليه، وتحطم حلمي عصر اليوم بسبب سفرهم.

العمدة يريد شراء أرض الخرابة مني، مثلما كان أبوه العمدة السابق يريد شراءها من المرحوم أبي. أبي لم يقبل، ولم أقبل القيام بما رفضه أبي. وأجبت على إلحاح العمدة ومضايقاته لي لإجباري على بيع أرضي، بما أجاب به أبي على إلحاح أبيه ومضايقاته: لن نترك البيت الذي عاش فيه أجدادنا، ولن نبيع أرض الخرابة لمشترٍ يتطاول جوارنا

بالبنيان حتى ينجرح مسكننا وينكشف من عَل، فيصعب العيش فيه.

العمدة بارد الدم، ولا يملّ مما لم يمل منه أًبوه. هو يريد أن نبيع كي يبيع من بعدنا ويكسب، ونخسر نحن.. الحياة هنا صارت مرهقة، ومريرة.. لا.. العمدة وأبوه وأمثالهما هم الذين جعلوا حياتنا مريرة مرهقة، وللأسف ليس من السهل الخلاص، والله لا يريد أن يغدق علينا من رحمته، ويأذن لنا بخلاص.

***

الأَرَقُ قاس، والليلة انطوى معظمها لكن الفجر لا يريد أن يطل. نظرت مجددًا في ساعة يدي المستدفئة تحت المخدة، فوجدت عقاربها اللاذعة تدل على الثالثة وسبع دقائق. لا يزال الفجر بعيدًا. تهيأت للقيام من قعدتي غير المجدية وجولاني بين الذكريات والأحلام التي لن تتحقق قريبًا، وكدت أستلقي إلى جوار «نسمات» عسى النوم يواتيني من بعد استدامة السهاد. لكن صرخةً فَزِعةً جاءت من ناحية سطح المنزل، فخطفتْ قلبي وانخطفت مهرولًا إلى السلم، وخلفي «نسمات».

عند سور السطح، كان ابني «محمد» يحدق في ظلام الخرابة ويصرخ من شدة الفزع، ومن شدة الرعب ترتجف أطرافه فلا تقوى ساقاه على الوقوف به:

ـ مالك يا محمد، مالك يا ابني؟

ـ .. العفاريت..

أعمال د. يوسف زيدان

أولًا: الكتب المؤلَّفة

١ ـ عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية «تأليف». الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة أعلام العرب).
٢ ـ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي «تأليف». دار مدارك (دبي).
٣ ـ شعراء الصوفية المجهولون «تأليف». دار مدارك (دبي).
٤ ـ الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر «تأليف». دار مدارك (دبي).
٥ ـ عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب «تأليف». دار الجيل (بيروت).
٦ ـ التُّرَاث المجهول، إطلالة على عالم المخطوطات «تأليف». دار الأمين (القاهرة).
٧ ـ التقاء البحرين «نصوص نقدية». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).
٨ ـ ابن النفيس، إعادة اكتشاف «تأليف». دار الشروق (القاهرة).
٩ ـ حَيّ بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها. دار مدارك (دبي).
١٠ ـ التصوف «تأليف». دار نهضة مصر، (القاهرة)
١١ ـ المخطوطات الألفية «تأليف». دار ن للنشر (القاهرة).
١٢ ـ ظِل الأفعي «رواية». دار الشروق (القاهرة).
١٣ ـ كلمات: التقاط الألماس من كلام الناس «تأليف». دار نهضة مصر (القاهرة).
١٤ ـ عزازيل «رواية» دار الشروق، (القاهرة).
١٥ ـ اللاهوت العربي وأصول العنف الديني «تأليف». دار الشروق (القاهرة).
١٦ ـ النبطي «رواية». دار الشروق (القاهرة).
١٧ ـ محال «رواية». دار الشروق (القاهرة).
١٨ ـ متاهات الوهم «تأليف». دار الشروق (القاهرة).
١٩ ـ دوامات التديُّن «تأليف». دار الشروق (القاهرة).
٢٠ ـ فقه الثورة «تأليف». دار الشروق (القاهرة).
٢١ ـ جونتنامو «رواية». دار الشروق (القاهرة).
٢٢ ـ فقه الحب «تأليف». دار الرواق (القاهرة).
٢٣ ـ فقه العشق «تأليف». دار الرواق (القاهرة).
٢٤ ـ شجون مصرية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٥ ـ شجون عربية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٦ ـ شجون تراثية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٧ ـ شجون فكرية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٨ ـ نور «رواية». دار الشروق (القاهرة).
٢٩ ـ حل وترحال «مجموعة قصصية».
٣٠ ـ فوات الحيوات «مجموعة قصصية».
٣١ ـ أهل الحي «مجموعة قصصية» دار الشروق (القاهرة).

٣٢ ـ غربة عرب «مجموعة قصصية» دار الشروق (القاهرة).

ثانيًا: بحوث ودراسات

١ ـ المقدمة في التصوف، لأبي عبد الرحمن السلمي «تقديم وتحقيق». دار مدارك (دبي).
٢ ـ شرح فصول أبقراط لابن النفيس «دراسة وتحقيق». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة).
٣ ـ ديوان عبد القادر الجيلاني «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).
٤ ـ ديوان عفيف الدين التلمساني «دراسة وتحقيق». دار الشروق (القاهرة).
٥ ـ قصيدة النادرات العينية للجيلي مع شرح النابلسي «دراسة وتحقيق». دار الجيل (بيروت).
٦ ـ رسالة الأعضاء، لابن النفيس «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).
٧ ـ المختصر في علم الحديث النبوي، لابن النفيس «دراسة وتحقيق». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة).
٨ ـ المختار من الأغذية، لابن النفيس «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).
٩ ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبد الكريم الجيلي «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).
١٠ ـ فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كُبْرى «دراسة وتحقيق». دار سعاد الصباح (القاهرة).
١١ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية «الجزء الأول». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٢ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية «الجزء الثاني». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٣ ـ نوادر مخطوطات بلدية الإسكندرية «كتالوج مصوَّر». برنامج الأمم المتحدة للتنمية (مكتبة الإسكندرية).
١٤ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي «الجزء الأول». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٥ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي «الجزء الثاني». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٦ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي «الجزء الثالث». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٧ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المخطوطات العلمية». (مكتبة الإسكندرية).
١٨ ـ بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية «كتالوج مصوَّر». (مكتبة الإسكندرية).
١٩ ـ فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي (التصوف، التفسير، السيرة، الحديث). (مكتبة الإسكندرية).
٢٠ ـ المتواليات «دراسات في التصوف». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).
٢١ ـ المتواليات (فصول في المتصل التُّراثي المعاصر). الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).
٢٢ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التصوف وملحقاته». (مكتبة الإسكندرية).
٢٣ ـ فهرس مخطوطات رشيد ودمنهور. مؤسسة الفرقان (لندن).
٢٤ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التاريخ والجغرافيا». (مكتبة الإسكندرية).
٢٥ ـ فهرس مخطوطات شبين الكوم. مؤسسة الفرقان (لندن).
٢٦ ـ فهرس مخطوطات المعهد الديني بسموحة. (مكتبة الإسكندرية).
٢٧ ـ فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي «أصول الفقه وفروعه». (مكتبة الإسكندرية).
٢٨ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المنطق». (مكتبة الإسكندرية).
٢٩ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «الحديث الشريف». (مكتبة الإسكندرية).
٣٠ ـ فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا. معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
٣١ ـ فهرس مخطوطات دير الإسكوريال. (مكتبة الإسكندرية).
٣٢ ـ ماهية الأثر الذي في وجه القمر، لابن الهيثم «دراسة وتحقيق». (مكتبة الإسكندرية).

٣٣ ـ مقالة في النقرس، للرازي «دراسة وتحقيق». (مكتبة الإسكندرية).
٣٤ ـ مختارات من نوادر مقتنيات مكتبة الإسكندرية. (مكتبة الإسكندرية).
٣٥ ـ الشامل في الصناعة الطبية، لابن النفيس «دراسة وتحقيق». ثلاثون جزءًا. المجمع الثقافي (أبو ظبي).
٣٦ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الألفية «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).
٣٧ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الموقَّعة «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).
٣٨ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الشارحة «تقديم وتحرير» (مكتبة الإسكندرية).
٣٩ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المترجمة «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).
٤٠ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المطوية «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).